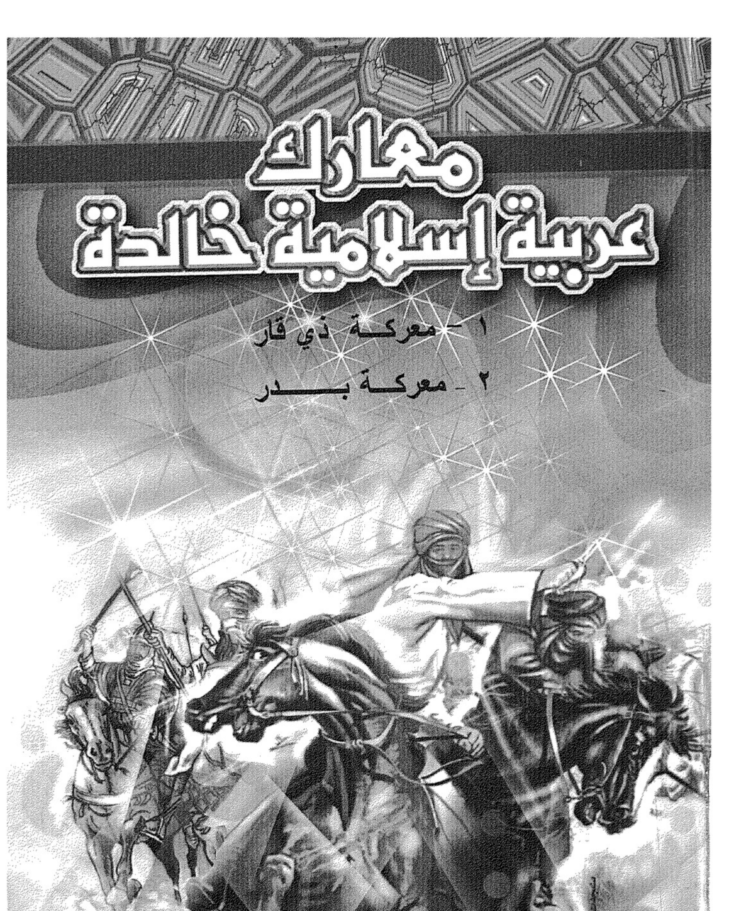
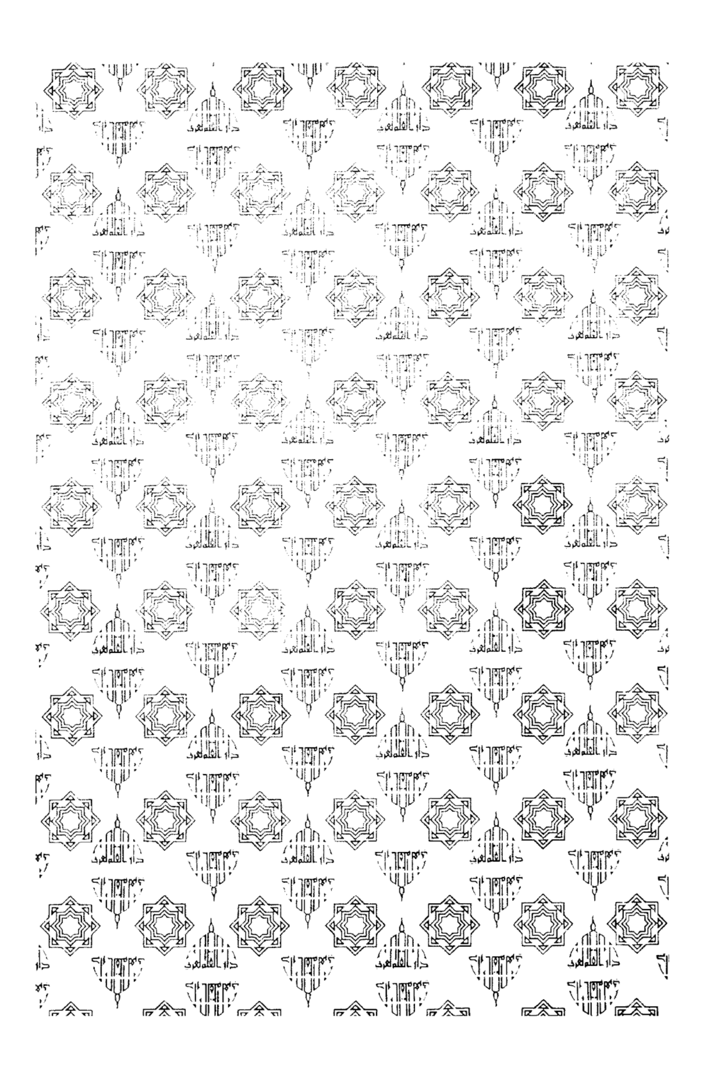
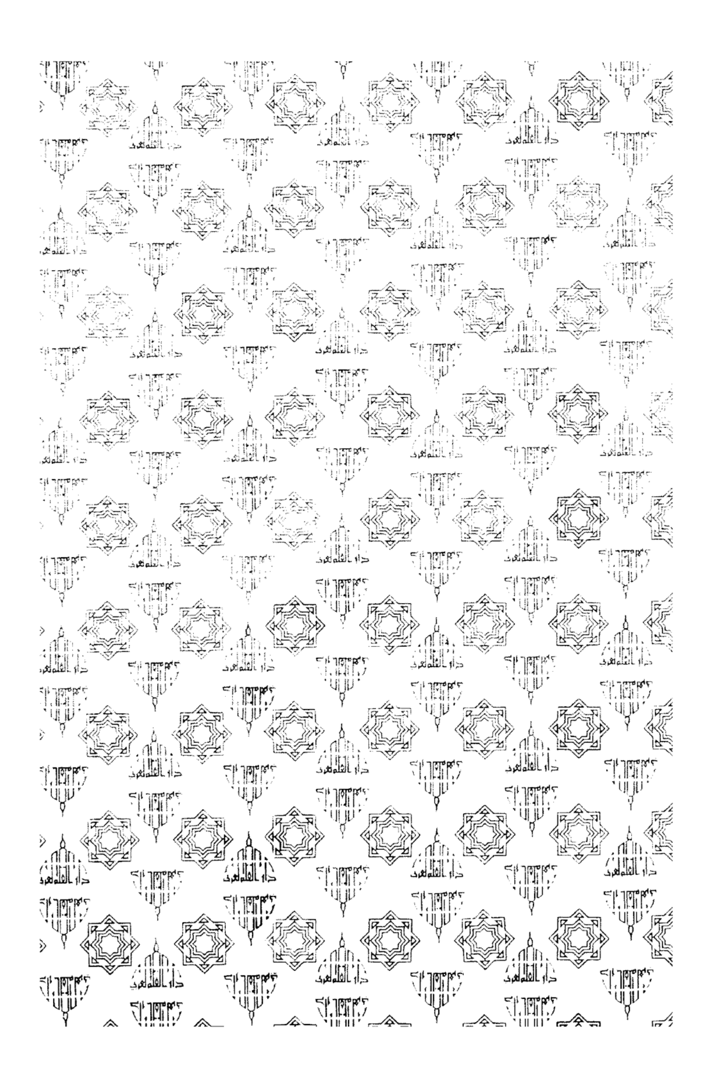


دار القلم العربي





معارك عربية خالدة

١

معركة ذي قار

اعداد

عبد القادر الشيخ ابراهيم

مراجعة

الدكتور أحمد عبد الله فرهود

دار القلم العربي

منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتف : ٢٢١٣١٢٩ ص . ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٢٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على أشرفِ الخلق أجمعين ، سيدنا محمد ﷺ سيدِ الأولين والآخرين .

أما بعد :

فهذا لقاءٌ جديدٌ مع سلسلة جديدةٍ تتحدّث عن المعارك الحربيةِ الخالدةِ التي خاضتْها أمتُنا العربيةُ والإسلاميةُ عبرَ تاريخها المجيدِ في مواجهةِ قوى البغي والشرّ والعدوانِ ، وضربَتْ أروعَ الأمثلةِ في التضحيةِ والفداء ، والنُّبْل والوفاء ، ولبثتْ شامخةً مدافعةً عن أمنِها ووجودِها ، ودينِها وعقيدتِها .

لذلكَ رأتْ إدارةُ دارِ القلمِ العربي بحلبَ برئاسةِ الأستاذِ علاء الدين الرفاعي حفظه الله تعالى في هذه

السلسلة المادةَ الخِصْبةَ ، والفرصةَ المناسبةَ لتلتقيَ مع قرَّائها الأعزّاء للعودةِ بهم إلى إحياء أمجادِ الآباء والأجدادِ لعلّنا نستلهمُ منهمُ العِظَةَ والعِبرةَ ، ونقتدي بهم في الثبات على العقيدة الصحيحة ، والتمسُّكِ بالدينِ الحقِّ ، ﴿ **وقُلِ اعملوا فسيرى اللهُ عملَكم ورسولُه والمؤمنونَ وستُردُّونَ إلى عالِمِ الغيبِ والشهادةِ فينبِّئُكم بما كنتُم تعملونَ** ﴾ صدقَ الله العظيم ، وصلّى الله على سيدِنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم .

حالةُ العرب قبلَ الإسلام

كان العربُ قبلَ الإسلامِ قبائلَ متفرِّقةً ومتباغضةً ومتناحرة ، فكانتِ القبيلةُ القويةُ تُغِيرُ على القبيلةِ الضعيفةِ فتقتلُ رجالَها ، وتَسبي نساءَها ، وتخطَفُ أطفالَها لتبيعَهم أَرِقّاءَ في سوق النِّخاسة .

لقد كانت إغاراتُ النّهبِ والسلبِ تشكِّلُ عاملاً من عوامل تقويضِ المجتمع العربي ، وتحويله إلى ركامٍ فقدَ نشاطَه وحيويتَه ، وكأنه لا روحَ فيه ولا حياة .

لقد استفحلَ مرضُ الجهلِ في هذا المجتمع الحائر المهتاجِ ، وأصبحَ دائبَ النّخرِ فيه ، حتى أحبَّ بعضُهم الإغارة على بعض ، لدرجةِ أنَّهم إنِ افتقدوا عدوّاً أو خصماً يُغيرونَ عليه ، أو يقومون بمهاجمتِهِ ، أغارَ بعضُهم على بعضٍ حتى ولو كانوا من أهليهم وذوي قراباتِهم ، وذلك أبغضُ وأشنأُ ما يُصابُ به المجتمعُ .

وقد عبّر شاعرُهم القطاميُّ عن ذلك بقوله :

وكنَّ إذا أغرْنَ على قبيلٍ فأعوزهنَّ نهبٌ حيثُ كانا

إلى أن قال :

وأحياناً على بَكْرٍ أخينا إذا ما لم نجدْ إلاّ أخانا

وبسبب هذا الجهل والتخلُّف، والتناحر والتفرُّق، أضحى الإنسانُ العربيُّ مَهيْضَ الجناح ، ضعيفَ الشخصية ، فاقدَ الهُوِيَّة ، تَبعياً مهزولاً مطموعاً به ، فمنهم مَنْ كان تابعاً للفُرْس ، ومنهم مَنْ كان تابعاً للروم ، ومنهم من كانَ تابعاً للأحباش ، يوالونَهم ويخضعونَ لهم ، ويأتمرونَ بأمرهم ، ويقدِّمونَ لهمُ الولاءَ والطاعةَ ، ويُنفِّذونَ لهم ما يريدون ، وكأنَّ هؤلاءِ سادةٌ والعربُ عبيدٌ لهم .

ولقد بلغَ بهمُ الضَّعفُ والخنوعُ ، أنَّ الفُرْسَ والرومَ كانوا يتحكَّمونَ في مصائرِهم ، فمَنْ رأوا منه

ولاءً وطاعةً وخدمةً توَّجوه ملكاً على قومه ، وكان تابعاً لهم ، وعاملاً من عُمَّالهم ، يأتمرُ بأمرهم ، وينتهي بنهيهم ، فإذا ما تمرَّدَ عليهم وخالفَ أوامرَهم تخلَّصوا منه ، وعزلوه بالقتل ، ثم ولَّوا مكانَه مَنْ رأوه مخلصاً ومتفانياً في خدمتهم .

وفي الصفحاتِ القليلةِ التاليةِ سنلقي الضوءَ على واقع العرب وتبعيَّتِهم للأمم الأخرى قبل الإسلام .

أولاً ـ الغساسنةُ والرومُ :

قال ابنُ خلدون في تاريخه : أوَّلُ مُلْكٍ كان للعرب بالشام ـ فيما علمناه ـ للعمالقة ثم لبني إِرَمَ بنِ سام ، فكانَ بنو إرمَ يومئذٍ في نواحي الشام والعراق ، وقد ذُكروا في التوراة ، وكان لهم معَ ملوكِ الطوائفِ حروبٌ ، وكانَ آخرَهم مُلْكاً الزباءُ بنتُ عمرِو بنِ

السميدع ، وكانتْ قضاعةُ مجاورينَ لهم في ديارهم بالجزيرة ، وغلبوا العمالقة ، ولَمّا هلكتِ الزباءُ ملَك أمرَ العربِ تنوخُ من بطونِ قضاعة ، فكانوا مُمَلَّكينَ من قِبَلِ الروم ، ثم تلاشى أمرُ تنوخَ واضمحلَّ ، وغلبتْ عليهم سُلَيحُ من بطون قضاعة ثم الضجاعم فتنصّروا ، وملَّكتْهمُ الرومُ على العربِ ، وأقاموا على ذلك مدّةً ، وكانَ نزولُهم ببلاد مؤاب من أرضِ البلقاء .[1]

وذكرَ أبو الفداء : أن الغساسنةَ كانوا عُمّالاً على عرب الشام ، وأصلُ غسانَ من اليمن من بني الأزد تفرَّقوا من اليمن بسيل العَرِمِ ، ونزلوا على ماءٍ بالشامِ يقالُ له : غسانُ ، فنُسِبوا إليه ، وكانَ قبلَهم بالشام عربٌ يقالُ لهم : الضجاعمة من سُلَيح ، فأخرجتْ

---

[1] تاريخ ابن خلدون ، ج ٢ .

غسانُ سُلَيحاً عن ديارهم ، وقتلوا ملوكَهم وصاروا موضعَهم .[1]

قال المسعوديُّ : وكانتْ ديارُ ملوكِ غسانَ باليرموكِ والجولانِ وغيرِهما من غوطةِ دمشقَ وأعمالها، ومنهم مَنْ نزلَ الأردُنَّ من أرضِ الشام .[2]

ثانياً ـ الفرسُ وملوكُ الحِيرة :

ذكرَ الباحثُ عمر رضا كحّالة في كتابهِ العالم الإسلامي : أُسِّستْ إمارةُ الحيرةِ عامَ ٢٤٠ م ، ووُلِّيَ عليها عمرُو بنُ عديّ ، ورغبتِ الفُرْسُ بإنشائها حذراً من إغارة عربِ الباديةِ وغيرِهم مِمَّنْ جاورَهم على أملاكِها ، فجعلوا هذه الإمارةَ بمثابةِ حاميةٍ تحميهم من

---

[1] تاريخ أبي الفداء ، ج ١ .

[2] مروج الذهب للمسعودي ، ج ١ .

إغارةِ الأعداء ، وكانَ النظامُ المتَّبعُ بينَ فارسَ وعربِ الحِيرة أنَّ هؤلاء يُقَدِّمونَ الطاعةَ لِمَلِكِ فارسَ وهو يولّي عليهم أميراً من أنفسهم ، وعليهم أن يَحْمُوا فارسَ من كلِّ مُغيرٍ من نواحيهم ، والفرسُ مقابلَ ذلكَ يُعْفُونَهم من دفعِ الإتاوةِ ، وكانَ نظامُ الفرسِ إذ ذاك نظاماً إقطاعياً ، يكادُ يستقلُّ كلُّ والٍ بأمرِ مقاطعتهِ ويستمرُّ والياً عليها مدى حياتهِ غالباً ، ويراعي الملكُ رغبةَ المقاطعةِ فيمنْ يُولِّي عليها ، على عكسِ النظامِ الروماني فقد كان نظاماً مركزياً .[1]

وقال الطبريُّ : وعمرُو بنُ عدي أولُ مَنِ اتَّخذَ الحيرةَ منزلاً من ملوك العرب ، وأولُ مَنْ تجدُهُ أهلُ الحيرةِ في كتبِهم من ملوك العرب بالعراق وإليه يُنسَبون،

---

[1] كتاب العالم الإسلامي .

وهم ملوك آلِ نصرٍ ، ولم يزلْ عمرُو بنُ عديّ ملكاً حتى مات وهو ابنُ مائةٍ وعشرينَ سنةً مستبدّاً منفرداً يغزوهم ويغنمُ ، وتَفِدُ عليه الوفودُ ولا يَدينُ للملوك الطوائفِ ، ولا يَدينونَ له ، حتى قدمَ أردشيرُ بنُ بابكَ في أهلِ فارسَ .

وقال : وإنما كانوا طوائفَ على المخاليفِ يُغيرُ كلُّ واحدٍ على صاحبه إذا استغفلَه ويرجعُ خوفَ الطلب ، حتى كان عمرُو بنُ عدي فاتَّصَلَ له ولعَقِبهِ المُلْكُ على مَنْ كان بنواحي العراق وباديةِ الحجازِ بالعرب ، فاستعملهُ ملوكُ فارسَ على ذلك إلى آخرِ أمرِهم ، وكانَ أمرُ آلِ نصرٍ هؤلاءِ ، ومَنْ كان من ولاةِ الفرسِ وعُمّالِهم على العربِ معروفاً مُثْبَتاً عندهم في كنائسِهم وأشعارهم .[1]

---

[1] تاريخ الطبري ، ج ٢ .

ثالثاً ـ استيلاءُ الحبشةِ على اليمن :

ذكرَ الكلبيُّ في سببِ غزوِ ذي نواسٍ أهلَ نجرانَ : أنَّ يهودياً كان بنجرانَ ، فعدا أهلُها على ابنينِ له فقتلوهما ظلماً ، فرفعَ أمرَهُ إلى ذي نواسٍ وتوسَّلَ إليه باليهودية ، واستنصرهُ على أهلِ نجرانَ وهم نصارى ، فحَمِيَ له ولدينِهِ ، ولَمّا أَفْلتَ دوسٌ ذو ثعلبانَ فقدمَ على قيصرَ صاحبِ الروم يستنصرُه على ذي نواسٍ ، وأعلمَهُ بما ركبَ منهم ، وأراه الإنجيلَ وقد احترقَ بعضُه في النار ، فكتبَ له إلى النجاشيِّ يأمرُه بنصرِهِ وطلبِ ثأرِه ، وأمَّرَ عليهم أرياطاً ـ رجلاً منهم ـ وعَهِدَ إليه بقتلِهم وسبيهم وخرابِ بلادِهم .

فخرجَ أرياطُ لذلك ومعه أبرهةُ الأشرمُ ، وبعثَ معه النجاشيُّ سبعينَ ألفاً من الحبشة ، فركبوا البحرَ ونزلوا ساحلَ اليمن ، وجمعَ ذو نواسٍ حِمْيَرَ ومَنْ أطاعهُ

من أهلِ اليمنِ على اختلافٍ وافـتراقٍ في الأهـواء ، فلـم يكنْ كبيرُ حربٍ وانهزموا ، ووطِئَ أرياطُ قـائدُ الحبشـةِ اليمنَ بالحبشة ، وبعثَ إلى النجاشيّ بثلُـثِ السبي كمـا عَهِـدَ لـه ، ثـم أقـامَ بهـا فضبطَهـا وأذلَّ رِجـالاتِ حِمْيَرَ ، وهدمَ حصونَ الملكِ بها مثـالَ سـلجيقَ وسـونَ وغمدانَ .[1]

رابعاً ـ انتزاعُ اليمنِ من الحبشة :

فشِلَ أبرهةُ الحبشيُّ بهدمِ الكعبةِ ورجعَ عنهـا يجرُّ أذيالَ الخيبةِ ، ثم ماتَ متأثِّراً من الخُـذلانِ الـذي أصابـه في مكة .

فملكَ مكـانَـه ابنُـه يكسـومُ ، وبـه كـان يكنـى ،

---

[1] تاريخ ابن خلدون ، ج ٢ .

واستفحلَ ملكُه وأذلَّ حِمْيَرَ وقبـائلَ اليمـن ، ووطِئَتْهـمُ الحبشةُ فقتلوا رجالَهم ، ونكحوا نساءَهم ، واستخدموا أبناءَهم ، ثم هلَكَ يكسـومُ بـنُ أبرهـةَ ، فملـكَ مكانَـه أخوه مسروقٌ ، وساءتْ سيرتُه ، وكَثُرَ عَسَـفُ الحبشـة باليمن، فخرج ابنُ ذي يزنَ واستجاشَ عليهم بكسرى، وقدمَ اليمنَ بعساكرِ من الفرس، وقتلَ مسروقاً، وذهـبَ أمرُ الحبشةِ بعدَ أن توارثَ مُلْـكَ اليمـنِ منهـم أربعـةٌ في اثنتين وسبعينَ سنةً ، أولُهم أرياطُ ، ثم أبرهةُ ، ثـم ابنُـه يكسومُ ، ثم أخوه مسروقُ بنُ أبرهةَ .

قال ابن خلدونَ : ولَمّـا طـالَ البـلاءُ مـن الحبشـةِ على أهلِ اليمنِ خرجَ سيفُ بنُ ذي يزنَ الحِمْيَريُّ وقدمَ على قيصرَ ملكِ الروم وشكا إليه أمرَ الحبشـةِ ، وطلـبَ أنْ يُخرِجَهم ويبعثَ على اليمن مَنْ شاءَ من الروم ، فلم يُسْعِفْهُ ، وكان على دينِ النصارى ، فرجعَ إلى كسرى

وقدمَ الحيرة على النعمان بن المنذر عامل فارسَ على الحيرةِ وما يليها من أرض العرب ، فشكا إليهِ واستمهلَهُ النعمانُ إلى حين وفادتهِ على كسرى ، وأوفدَ معه وسألَه النصرَ على الحبشةِ وأن يكونَ مُلْكُ اليمنِ له .

فقالَ : بَعُدَتْ أرضُك عن أرضنا ، أو هي قليلةُ الخيرِ ، إنما هي شاءٌ وبعيرٌ ولا حاجةَ لنا بذلك ، ثم كساه وأجازَه ، فنثرَ دنانيرَ الإجازةِ وأنهبَها الناسَ ، فأنكرَ عليه كسرى ذلك ، فقال : جبالُ أرضي ذهبٌ وفضةٌ وإنما جئت لتمنعني من الظلم ، فرغِبَ كسرى في ذلك وأمهله للنظر في أمره ، وشاورَ أهلَ دولتهِ ، فقالوا : في سجونِكَ رجالٌ حَبَسْتَهم للقتل ، ابعثْهم معه فإن هلَكوا كان الذي أردتَ بهم ، وإن مَلَكوا كان مُلْكاً ازددتَه إلى ملكك .

وكانوا ثمانمائة ، وقدَّم عليهم أفضلَهم وأعظمَهم بيتاً ، وأكبرَهم نسَباً ، وكان وَهْزَرَ الديلميّ ، فأمَّرَهُ على أصحابه ، وركبوا البحرَ ثمانِ سفائنَ فغرقتْ منها سفينتان وخَلُصتْ ستٌّ إلى ساحلِ عدنَ .

فلمّا نزلوا بأرض اليمنِ قال وهْزَرُ لسيفٍ : ما عندك ..؟

قال : ما شئتَ من قوسٍ عربيةٍ ، ورجلي مع رجلك حتى نظفرَ أو نموتَ ، قال : أنصفتَ ، وجمعَ سيفُ بنُ ذي يزنَ مَنِ استطاعَ من قومه ، وسارَ إليه مسروقُ بنُ أبرهةَ في مائةِ ألفٍ من الحبشةِ وأوباشِ اليمنِ ، فتواقفوا للحرب ، وأمرَ وهْزَرُ ابنَهُ أن يُناوشَهم القتالَ ، فقتلوه ، فحملَ القومُ عليهم ، وانهزمَ الحبشةُ في كلِّ وجهٍ ، وأقبلَ وهزرُ إلى صنعاءَ ، ودخل ناصباً رايتَه فمَلَكَ اليمنَ ، ، ونفى عنها الحبشةَ ، وكتبَ

بذلك إلى كسرى ، وبعثَ إليه بـالأموالِ ، فكتـبَ إليـه كسرى أن يُملِّكَ سيفَ بنَ ذي يـزنَ علـى اليمـنِ علـى فريضـةٍ يُؤَدِّيهـا كـلَّ عـامٍ ، ففعـلَ وانصـرفَ وهـزرُ إلى كسرى ، وملكَ سيفٌ اليمنَ ، وكانَ أبوه من ملوكها، وخَلَفَ وهـزرُ نائبـاً علـى اليمـنِ في جماعـةٍ مـن الفـرس ضمَّهـم إليـه ، وأنزلـه بصنعـاءَ ، وانفـردَ ابـنُ ذي يــزنَ بسلطانه ونزلَ قصرَ الملكِ وهو رأسُ غمدان .[1]

مقتلُ سيفِ بنِ ذي يزنَ :

قالَ ابنُ إسحاقَ : ولَمّا نصرفَ وهزرُ إلى كسرى غزا سيفٌ على الحبشةِ وجعل يقتلُ ويبقرُ بطـونَ النسـاء حتى إذا لم يبقَ إلاّ القليلُ جعلَهم خولاً[2]، واتخذَ منهـم

(1) تاريخ ابن خلدون ج ٢ .

(2) الخول : الخدم .

طوابيرَ يَسْعونَ بين يديه بالحِراب ، وعَظُمَ خوفُهم منه ، فخرجَ يوماً وهم يسعَونَ بين يديه فلمّا توسَّطَهم وقد انفردوا به عن الناسِ رَمَوهُ بالحِرابِ فقتلوه .[1]

---

[1] تاريخ ابن خلدون ج ٢ .

خطرُ العربِ على الفرس والروم

لم يَكُنِ العربُ جميعاً تابعينَ للفرس والروم ، أو خاضعينَ لأمرهم ، أو عُمّالاً لهم ، بل لقد كان كثيرٌ منهم يثورونَ عليهم ويضايقونَهم ، ويتعرَّضونَ لقوافلهم بالإغارةِ والنَّهبِ ، بل ويُشَكِّلونَ خطراً حقيقياً على وجودِهم ومصالحهم في الأرضِ العربية ، حتى يئسوا منهم ، فعَمَدوا إلى موادعتِهم ومسالمَتِهم لاتِّقاءِ شرِّهم .

يقول الباحثُ عمر رضا كحالة في كتابه العالم الإسلامي :

(وكانتِ العراقُ وفارسُ يحكمُهما ملوكُ الطوائفِ بعد الإسكندرِ ، يستبدُّ كلٌّ منهم بقسمٍ منها يشتغلونَ بذلك عن مناوأةِ الرومِ أعدائِهمُ القدماءِ ، حتى إذا نشأتِ الدولةُ الساسانيةُ في أولِ القرنِ الثالثِ الميلادي وجمعتْ كلمةَ الفرس تحت لوائها أصبحَ الرومُ يخافونها

على بلادهم لِمَا بينهما من المنافسةِ القديمة ، فازدادت رغبتُهم في تقريبِ العربِ لا لاتّقاءِ شرِّهم فقط بل للاستعانةِ بهم على أولئكَ المنافسينَ .

واتفقَ نزوحُ الغسانيين نحوَ الشمالِ ـ كما تقدم ـ وقد نزلوا البلقاءَ وفيها الضجاعمةُ وغيرُهم من قبائل العربِ ، وتنازعوا على المقامِ هناكَ ، وتنافسوا في النفوذ على أهلِ الباديةِ ، فظهر الغسانيون ، فلمّا احتاج الرومُ إلى نُصرتِهم استنصروهم وقرّبوهم ، فتنصّروا بتوالي القرونِ وأصبح لهم شأنٌ في حروبِ الرومِ والفرس)[1].

---

[1] العالم الإسلامي لعمر كحالة .

مولدُ رسولِ الله ﷺ

وآياتٌ ظهرتْ تُنْبِئُ بزوالِ ملْكِ الفرس

قال الطبري : لَمّا كانتْ ليلةُ ولدَ فيها رسولُ الله ﷺ ارْتَجَسَ[1] إيوانُ كسرى ، وسقطتْ منه أربعَ عشرةَ شرفةً ، وخَمَدَتْ نارُ فارسَ ، ولم تخمدْ قبلَ ذلك بألف عامٍ ، وغاضَتْ بحيرةُ ساوةَ ، ورأى الموبذانُ إبلاً صِعاباً تقودُ خيلاً عِراباً[2]، وقد قطعتْ دجلةَ وانتشرتْ في بلادها ، فلمَّا أصبحَ كسرى أفزعَهُ ما رأى فصبرَ تشجُّعاً ، ثم رأى ألاّ يكتمُ ذلك عن وزرائِهِ ومرازِبتِهِ ، فلبسَ تاجَهُ وقعدَ على سريرِهِ وجمعهم إليه ، فلمّا اجتمعوا إليه أخبرهم بالذي بعث إليهم فيه ودعاهم ،

---

[1] ارتجسَ : اضطرب وتحرّك حركةً سُمِعَ لها صوتٌ .

[2] خيلٌ عِرابٌ : خلافُ البراذين ، والواحد عربي .

فبينا هم كذلك إذ وردَ عليه كتابٌ بخمود النـارِ فـازدادَ غمّاً إلى غمِّه .

فقالَ الموبذانُ : وأنا ـ أصلحَ اللهُ الملكَ ـ قد رأيتُ في هذه الليلة ... وقصّ عليه الرؤيا في الإبل .

فقالَ : أيُّ شيءٍ يكونُ هذا يا موبذان ؟ ـ وكـان أعلمَهم عند نفسه بذلك ـ .

فقال : حادثٌ يكونُ عنـدَ العرب ، فكتـبَ عنـد ذلـك : (مـن كسرى ملـكِ الملـوكِ إلى النعمـانِ بـنِ المنذر ، أمـا بعـدُ : فوجِّـهْ إليَّ رجـلاً عالمـاً بمـا أُريـدُ أن أسألَه عنه) .

فوجَّه إليه عبدَ المسيحِ بنَ عمرِو بنِ حيانَ بنِ بقيلـةَ الغسّاني ، فلمّا قدم عليه قال له : أعندكَ علمٌ بمـا أُريـدُ أن أسألَك عنه ؟

قال : لِيُخبرْني الملكُ ، فإنْ كان عندي منه علـمٌ ،

وإلاّ أخبرتُه بمَنْ يعلمُهُ له ، فأخبرَهُ بما رأى .

فقال : عِلْمُ ذلك عند خالٍ لي يسكنُ مشارفَ الشام يقالُ له : سَطيحٌ .

قال : فأْتِهِ فاسألْهُ عمّا سألتُك وأْتِني بجوابه .

فركبَ عبدُ المسيح راحلتَه حتى قَدمَ على سَطيحٍ وقد أشفى على الموت ، فسلَّمَ عليه وحيّاه ، فلم يَحِرْ سطيحٌ جواباً ، فأنشأ عبدُ المسيح يقولُ :

أصمُّ أم يسمعُ غطريفُ اليمنْ　　يا فاصلَ الخطة أعيَتْ مَنْ ومَنْ
أمْ فازَ فازْ لَمَّ به شأْوُ العنن　　أتاكَ شيخُ الحيِّ من آلِ سَننْ
وأمُّه من آلِ ذئبِ بن حجَنْ　　أزرقُ مُمهى النابِ صرّارُ الأُذُنْ
أبيضُ فضفاضُ الرداء والبَدَنْ　　رسولُ قيلِ العجمِ يسري للوسَنْ
يجوبُ بي الأرضَ علنداةٌ شزَنْ　　ترفعُني وَجنٌ وتهوي بي وجَنْ
لا يرهبُ الرعدَ ولا ريبَ الزمنْ　　حتى أتى عاري الجآجي والقَطَنْ
تلُفُّهُ في الريح بوغاءِ الدِّمَنْ　　كأنّما حثْحثَ من حضني ثكنْ

فلمَّا سَمِعَ سطيحُ شعرَه رفعَ رأسَه وقال :

عبدُ المسيح على جملٍ يسيح ، إلى سطيحْ وقد أوفى على الضريح .

بعثك مَلِكُ بني ساسانَ ، لارتجاسِ الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان ، رأى إبلاً صعاباً تقودُ خيلاً عِراباً ، قد قطعتْ دجلةَ وانتشرتْ في بلادها .

يا عبدَ المسيح ، إذا كثرتْ التلاوة ، وبُعثَ صاحبُ الهراوة ، وفاض وادي السماوة ، وغاضتْ بحيرةُ ساوة ، وخمدتْ نارُ فارسَ ، فليستِ الشامُ لسطيحٍ شاماً ، يملكُ منهم ملوكٌ وملكاتٌ ، على عددِ الشرفات ، وكلُّ ما هو آتٍ آت .

ثم قضى سطيح مكانَهُ ، فقام عبدُ المسيح إلى رحلِهِ وهو يقول :

شَمِّرْ فإنك ماضي الهمِّ شِمِّيرُ   لا يفزعنَّك تفريقٌ وتغييرُ
إن يكُ مُلكُ بني ساسانَ أفرَطَهم   فإنَّ ذا الدهرَ أطوارٌ دهاريرُ

فربَّما ربَّما أضحَوا بمنزلةٍ تهابُ صولتَها الأُسْدُ المهاصيرُ
منهم أخو الصرحِ مِهرانٌ وإخوتُه والهرمزانُ وسابورٌ وسابورُ
والناسُ أولادُ علاّتٍ فمن علموا أنْ قد أقلَّ فمهجورٌ ومحقورُ
وهم بنو الأم لَمّا أنْ رأوا نشباً فذاك بالغيب محفوظٌ ومنصورُ
والخيرُ والشرُّ مقرونان في قرنٍ فالخير متّبعٌ والشرُّ محذورُ

فلمّا قدمَ عبدُ المسيح على كِسْرى أخبره بقولِ سطيحٍ ، فقال : إلى أنْ يملكَ منا أربعةَ عشرَ ملكاً قد كانتْ أمورٌ .

فملكَ منهم عشرةٌ أربعَ سنين ، وملكَ الباقونَ إلى ملكِ عثمانَ بنِ عفّانَ .[1]

ولقدْ جمعَ البوصيريُّ رحمه الله تعالى ذلكَ في قصيدتِهِ (بردة المديح) ، فقال :

أبانَ مولدُهُ عن طيبِ عنصرِهِ يا طِيبَ مبتدَأٍ منهُ ومُختَتَمِ
يومٌ تفرَّسَ فيهِ الفُرْسُ أنّهمُ قد أُنذِروا بحلولِ البؤسِ والنّقَمِ

---

[1] تاريخ الطبري ج ٢ .

وباتَ إيوانُ كسرى وهو منصَدِعٌ كشَمْلِ أصحابِ كسرى غيرَ ملتئمِ

والنّارُ خامدةُ الأنفاسِ من أسَفٍ عليه والنّهرُ ساجي العين من سَدَمِ

وساءَ ساوةَ أنْ غاضتْ بُحيرتُها وردَّ واردُها بالغيظِ حينَ ظمي

كأنَّ بالنّارِ ما بالماءِ من بلَلٍ حُزناً وبالماءِ ما بالنارِ من ضَرَمِ

والجنُّ تهتفُ والأنوارُ ساطعةٌ والحقُّ يظهرُ من معنًى ومن كَلِمِ

عَمُوا وصَمُّوا فإعلانُ البشائرِ لم تُسْمَعْ وبارقةُ الإنذارِ لم تُشَمِ

من بعدِ ما أخبرَ الأقوامَ كاهنُهم بأنَّ دينَهمُ المعْوَجَّ لم يَقُمِ

وبعدَ ما عاينوا في الأُفْقِ من شُهُبٍ مُنْقَضَّةٍ وَفقَ ما في الأرضِ من صَنَمِ

حتى غدا عن طريقِ الوحيِ منهزِمٌ من الشياطينِ يقفو إثْرَ منهزِمِ

كأنَّهم هرباً أبطالُ أبرهةٍ أو عسكرٌ بالحصى من راحتيه رُمي

نبذاً به بعدَ تسبيحٍ ببطنهما نبذَ المسبِّحِ من أحشاءِ ملتقمِ

بعثةُ النبيِّ ﷺ وإصرارُ كسرى على الكفر

روى الطبريُّ عن هشامِ بنِ محمدٍ الكلبيِّ فقال : في سنةِ عشرينَ من مُلْكِ كسرى أبرويز بعثَ الله محمداً ﷺ ، فأقامَ بمكةَ ثلاثَ عشرةَ سنةً ، وهاجرَ في سنةِ ثلاثٍ وثلاثين من ملكهِ إلى المدينة .

ثم روى حديثاً مطوَّلاً بسندهِ عن أبي سلمةَ بنِ عبد الرحمنِ بنِ عوفٍ قال : بعثَ الله إلى كسرى ملَكاً وهو في بيتِ إيوانهِ الذي لا يُدْخَلُ عليه فيه ، فلم يَرُعْه إلاّ به قائماً على رأسهِ في يدِهِ عصا ، بالهاجرةِ في ساعتهِ التي كان يقيلُ فيها ، فقال : يا كسرى ، أتُسلمُ أو أكسرُ هذه العصا ؟

فقال : بهلِ .. بهلِ .. فانصرفَ عنه ، ثم دعا أحراسَهُ وحُجَّابه فتغيَّظَ عليهم ، وقال : مَنْ أدخلَ هذا الرجلَ عليَّ ؟

فقالوا : ما دخلَ عليكَ أحدٌ ولا رأيناه !

حتى إذا كان العامُ القابلُ أتاه في الساعةِ الـتي أتـاه فيها ، فقال له : أتُسْلِمُ أو أكسرُ هذه العصا ؟

فقـال : بهِـل ... بهِـل ... ثلاثـاً ، فخـرجَ عنـه ، فدعا كسرى حُجّابَه وحُرَّاسَـه وبوّابيـه فتغيَّـظَ عليهـم ، وقال لهم كما قال أولَ مـرّةٍ ، فقـالوا : مـا رأينـا أحـداً دخل .

حتى إذا كانَ في العامِ الثالثِ أتـاهُ في السـاعةِ الـتي جاءهُ فيها ، فقال له كما قـال : أتُسـلمُ أو أكسـرُ هـذه العصا ؟

فقال : بهِل .. بهِل ..

قـال : فكسـرَ العصـا ، ثـم خـرج .. فلـم يكـنْ إلاّ تهدُّرُ ملكِهِ ، وانبعاثُ ابنِهِ والفرسِ حتى قتلوه .[1]

---

[1] تاريخ الطبري ج ٢ .

وذكرَ حديثاً آخرَ عن الحسنِ البصريِّ : « أنَّ أصحابَ رسولِ الله ﷺ قالوا : يا رسولَ الله ، ما حُجّةُ الله على كسرى فيك ؟

قال : بعثَ إليه ملَكاً فأخرجَ يدَه من سورِ جدارِ بيته الذي هو فيه يتلألأُ نوراً ، فلمّا رآه فزِعَ ، فقال : لم ترعْ يا كسرى ، إنّ الله قد بعثَ رسولاً ، وأنزلَ عليه كتاباً ، فاتّبعْهُ تَسلَمْ دنياكَ وآخرتك .

قال : سأنظرُ »[1].

[1] المصدر السابق ج ٢ .

حربُ فارسَ والرومِ

ونزولُ قولهِ تعالى : ﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ .. ﴾

روى الطبريُّ بسندهِ عن عكرمةَ : أنَّ الرومَ وفارسَ اقتتلوا في أدنى الأرضِ ـ قال : وأدنى الأرضِ يومئذٍ أذرعاتٌ بها التقوا ـ فهُزمتِ الرُّومُ ، فبلغَ ذلكَ النبيَّ ﷺ وأصحابَه وهم بمكةَ ، فشقَّ ذلكَ عليهم ، وكان النبيُّ ﷺ يكرهُ أنْ يظهرَ الأُمِّيونَ من المجوسِ على أهلِ الكتابِ من الرومِ .

وفرِحَ الكفارُ بمكةَ وشَمِتوا ، فلَقوا أصحابَ النبي ﷺ فقالوا : إنكم أهلُ كتابٍ ، والنّصارى أهلُ كتابٍ ، ونحنُ أُمِّيونَ ، وقد ظهرَ إخوانُنا من أهل فارسَ على إخوانكم من أهلِ الكتابِ ، وإنكم إنْ قاتلتمونا لنظهرنَّ عليكم ، فأنزلَ اللهُ تعالى : ﴿ **ألم * غُلِبَتِ**

الرومُ ﴾ إلى ﴿ وهم عنِ الآخرةِ هم غافلونَ ﴾ فخرجَ أبو بكرٍ الصديقُ ﷺ إلى الكفّارِ فقال : أَفَرِحتُم بظهورِ إخوانكم على إخواننا ؟ فلا تفرحوا ولا يُقِرَّنَّ اللهُ أعينَكم ، فوالله ليظهرنَّ الرومُ على فارسَ ، أخبرَنا بذلكَ نبيُّنا ﷺ .

فقامَ إليهِ أُبيُّ بنُ خلفٍ الجمحيُّ ، فقال : كذبتَ يا أبا فَصيلٍ ..

فقال له أبو بكرٍ ﷺ : أنتَ أكذبُ يا عدوَّ الله .

فقال : أُناحِبُكَ[1] عشرَ قلائصَ[2] مني ، وعشرَ قلائصَ منك ، فإن ظهرتِ الرومُ على فارسَ غرمتُ ، وإنْ ظهرتْ فارسُ غرمتَ إلى ثلاثِ سنينَ .

ثم جاءَ أبو بكرٍ ﷺ إلى النبيِّ ﷺ فأخبرَه ، فقال :

---

[1] المناحبة : المراهنة .

[2] القلائص : جمع قلوص ، وهي الشابة من الإبل .

« ما هكذا ذكرتُ، إنما البِضعُ ما بين الثلاثِ إلى التسع، فزايدْه في الخطَرِ[1]، ومادَّه في الأجل » .

فخرجَ أبو بكرٍ ﷺ فلقيَ أُبيّاً ، فقال : لعلّك ندمتَ ؟

قال : لا ، تعالَ أُزايدْكَ في الخطرِ ، وأُمادُّكَ في الأجل ، فاجعلْها مائةَ قَلوصٍ إلى تسعِ سنين .

قال : قد فعلتُ .[2]

وأدنى الأرض ، معناه : أقربُ ، قال ابنُ عطيةَ : (فإنْ كانتِ الوقعةُ بأذرعاتٍ فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكةَ ، وإن كانتِ الوقعةُ بالجزيرة فهي أدنى بالقياسِ إلى أرضِ كسرى ، وإنْ كانتْ بالأُردُنِّ فهي أدنى إلى أرضِ الروم ، فلمّا طرأَ ذلك وغُلِبتِ الرومُ سُرَّ

---

[1] الخطر : ما يتخاطرُ عليه ويتراهنُ به .

[2] تاريخ الطبري ج ٢ .

الكفارُ ، فبشَّرَ اللهُ عبادَه بأنَّ الرومَ سيَغلبونَ وتكونُ الدولةُ لهم في الحرب)[1].

وعن عكرمةَ قال : كانت في فارسَ امرأةٌ لا تَلِدُ إلاّ الملوكَ الأبطالَ ، فدعاها كسرى ، فقال : إنّي أُريدُ أن أبعثَ إلى الرومِ جيشاً ، وأستعملَ عليه رجلاً من بنيكِ ، فأشيري عليَّ أيّهم أستعملُ ؟

قالتْ : هذا فلانٌ وهو أروغُ من ثعلبٍ وأحذرُ من صقرٍ ، وهذا فرُّخانُ وهو أنفذُ من سنانٍ ، وهذا شهربراز وهو أحلمُ من كذا ، فاستعملْ أيَّهم شئتَ .

قال : فإنّي قد استعملتُ الحليمَ .

فاستعملَ شهربرازَ ، فسارَ إلى الرومِ بأهلِ فارسَ ، وظهرَ عليهم، فقتلَهم وخربَ مدائنَهم، وقطعَ زيتونَهم .

---

[1] تفسير القرطبي .

وذكرَ يحيى بنُ يعمرَ حديثاً مثلَ حديثِ عكرمـةَ ، وزادَ : فلم يبرحْ شهربرازُ يطَؤُهم ويخرِبُ مدائنَهم حتى بلغَ الخليجَ ، ثم ماتَ كسرى ، فبلغَهـم موتُـه ، فـانهزمَ شهربرازُ وأصحابُه ، وأُديلَـتْ عليهـمُ الـرومُ عنـد ذلـك فاتَّبعوهم يقتلونَهم .[1]

وقال عكرمةُ في حديثه : لَمّا ظهرتْ فـارسُ علـى الرومِ ، جلسَ فَرُّخانُ يشـربُ ، فقـال لأصحابـهِ : لقـد رأيتُ كأنّي جالسٌ على سـريرِ كسـرى ، فبلـغَ كلامُـهُ كسرى ، فكتبَ إلى شهربرازَ : إذا أتاكَ كتـابي فـابعثْ إليَّ برأسِ فرُّخانَ ، فكتبَ إليه شـهربرازُ : أيُّهـا الملـكُ : إنكَ لنْ تجدَ مثلَ فرُّخانَ ، إنّ له نِكايةً وصوتاً في العدوِّ، فلا تفعلْ .

---

[1] تاريخ الطبري ج ٢ .

فكتبَ إليه : إنَّ في رجالِ فارسَ خَلفاً منه، فعجِّلْ عليَّ برأسِه .

فراجعهُ ، فغضبَ كسرى ، فلم يُجبْه ، وبعثَ بريداً إلى أهلِ فارسَ : إني قد نزعتُ عنكم شهربرازَ ، واستعملتُ عليكم فَرُّخانَ ، ثم دفعَ إلى البريدِ صحيفةً صغيرةً ، وقال : إذا وَلِيَ فرُّخانُ الْمُلْكَ وانقادَ له أخوه فأعطِهِ هذه الصحيفةَ ، فلمّا قرأ شهربرازُ الكتابَ قال : سمعاً وطاعةً ، ونزلَ عن سريره ، وجلسَ فرُّخانُ ، ودفعَ إليه الصحيفةَ ، فقال : ائتوني بشهربراز ، فقدَّمهُ ليضربَ عُنُقَه ، فقال : لا تعجلْ حتى أكتبَ وصيَّتي .

قال : نعم، فدعا بالسفطِ فأعطاهُ ثلاثَ صحائفَ، وقال : كلُّ هذا راجعتُ فيكَ كسرى ، وأنتَ أردتَ أن تقتلَني بكتابٍ واحدٍ !!

فردَّ الْمُلْكَ إلى أخيه ، وكتبَ شهربرازُ إلى قيصرَ

ملكِ الروم : إنَّ لي إليك حاجةً لا تحملُها البردُ ، ولا تبلغُها الصحفُ ، فالْقَني ، ولا تلْقَني إلاّ في خمسين روميّاً ، فإني ألقاكَ في خمسينَ فارسياً .

فأقبلَ قيصرُ في خمسمائةِ ألفِ روميٍّ ، وجعلَ يضعُ العيونَ[1] بين يديه في الطريق ، وخافَ أن يكونَ قد مكرَ به ، حتى أتاهُ عيونُهُ أنه ليسَ معه إلاّ خمسونَ رجلاً ، ثم بسطَ لهما والتقيا في قبّةِ ديباجٍ ضُرِبَتْ لهما ، مع كلٍّ واحدٍ منهما سكينٌ ، فدَعَوا ترجماناً بينهما ، فقال شهربرازُ : إنَّ الذينَ خربوا مدائنَك أنا وأخي بكيدنا وشجاعتِنا ، وإنَّ كسرى حَسَدَنا فأرادَ أن أقتلَ أخي ، فأبيتُ .. ثم أمرَ أخي أن يقتلَني ، فقد خلعناه جميعاً ، فنحنُ نقاتلُه معكَ .

قال : قد أصبتُما .

---

[1] العيونُ : الجواسيسُ يستطلعونَ الطريقَ .

ثم أشارَ أحدُهما إلى صاحبِهِ أن السرَّ بـين اثنـينِ ، فإذا جاوزَ اثنينِ فشا .

قال : أجل .

فقتلا الترجمانَ جميعاً بسـكينيهما ، ثـم أهلَـكَ اللهُ كسرى ، وجاءَ الخبرُ إلى رسولِ الله ﷺ يومَ الحُديبيـةِ ، ففرحَ ومَنْ معه .[1]

وهذا معنى قولِهِ تعالى: ﴿ **ألم * غُلِبَـتِ الـرُّومُ * في أدنـى الأرضِ وهـم مـن بعـدِ غَلَبِهـم سـيَغلبونَ * في بضعِ سنينَ للهِ الأمـرُ من قبـلُ ومـن بعـدُ ويومئـذٍ يفـرحُ المؤمنـونَ * بنصـرِ الله ينصُـرُ مَـنْ يشـاءُ وهـو العزيزُ الرحيم** ﴾[2].

---

[1] تاريخ الطبري ج ٢ .

[2] الآيات من ١ ـ ٥ من أول سورة الروم .



موقعةُ ذي قار

موقعُها ـ زمانُها ـ أسبابُها ـ وقائعُها ـ نتائجُها

أولاً ـ موقعُها :

ذو قار : ماءٌ لبكرٍ قريبٌ من الكوفةِ من أرضِ العراقِ ، وعليها دارتْ رحى معركةٍ طاحنةٍ بين العربِ والفُرْسِ ، أظهرَ فيها العربُ بطولةً خارقةً ، وشجاعةً فائقةً ، أدَّتا إلى انتصارٍ ساحقٍ للعربِ على أكبرِ قوّةٍ عسكريةٍ في الأرض ..

ويُعَدُّ هذا اليومُ من مفاخرِ العرب ، وله أسماءٌ كثيرةٌ :

فيقالُ له : يومُ قُراقِرَ ، ويومُ الحِنوِ حِنوِ ذي قار ، ويومُ حِنْوِ قُراقِرَ ، ويومُ الجبايات ، ويومُ العجرمِ ،

ويوم الغذوان ، ويومُ البطحاء ، بطحاءِ ذي قار ، وكلُّهنّ حول ذي قار ، كما ذكرَ الطبريُّ في تاريخه .

وإنما جاءتْ (ذو) مجرورةً بالياء لإضافتها إلى معركة .

ثانياً ـ زمانُها :

وقعتْ معركةُ ذي قار في السنة الثالثةِ من بعثةِ النبيِّ العربيّ محمد ﷺ قبل أن يؤمَرَ بالجهر بدعوتِهِ ، وهو يومئذٍ مع أصحابِهِ بمكةَ مستضعَفينَ ، فلمّا أعلمَهُ اللهُ تعالى بانتصارِ العربِ في ذي قارٍ فرِحَ بذلك فرَحاً شديداً ، وأخبرَ أصحابَه بذلك ، وقال لهم : « هذا أوّلُ يومٍ انتصفَ العربُ من العجمِ ، وبي نُصِروا »[1].

وصدقَ رسولُ اللهِ ﷺ ، فقد كانَ نصرُ العربِ في

---

[1] تاريخ الطبري ج ٢ .

ذي قارٍ فاتحةً لانتصاراتٍ كثيرةٍ متتاليةٍ تُنبئُ بزوالِ مُلْكِ الفُرْس على أيدي العرب والمسلمين في جولاتٍ متلاحقةٍ ، ومعاركَ متتابعةٍ .

هذا .. ولم يكَدِ المسلمونَ ـ وهم قِلَّةٌ في مكةَ ـ يسمعونَ من النبيِّ ﷺ هذا النّبأَ المُفْرِحَ حتى غمرتْهمُ الفرْحةُ ، وملَكتْهمُ العزّةُ ، وسَرَتْ في نفوسِهم رغبةُ القتالِ دفاعاً عنِ العقيدةِ والكرامة ، وحمايةً للنفسِ والدين ، فقالوا لرسولِ الله ﷺ يومَ العقبةِ : والله الذي بعثَكَ بالحقِّ ، إنْ شئتَ لنميلَنَّ على أهل منى غداً بأسيافنا .

فقال لهم : اصبروا ، فإنّا لم نؤمَرْ بقتالٍ .

ولسوفُ يؤمَرونَ بالقتالِ ، ولسوفَ يكونونَ أهلاً لهذا الأمرِ ، ولسوفَ يقاتلونَ اليهودَ والكافرينَ ، ولسوفَ يقاتلونَ الفُرْسَ والرومَ، ولسوفَ ينالونَ منهم،

وينتصرونَ عليهم ، ويفتحونَ بلادَهم ، وينشرونَ في ربوعها نورَ الإسلام وهديَه وعدلَه ورحمتَه وتسامُحَه وإنسانيَّتَه ، ويومئذٍ يفرحُ المؤمنونَ بنصرِ الله .

ثالثاً ـ أسبابُها :

لمعركةِ ذي قار عدّةُ أسبابٍ ، نُوجزُها فيما يلي :

أولاً : مقتلُ عديٍّ بنِ زيدٍ العبادي ، الذي قتلهُ الملكُ النعمانُ بنُ المنذرِ .

وهو : عديُّ بنُ زيدِ بن حمادِ بنِ زيدِ بنِ أيوبَ ابنِ محروفِ بنِ عامرِ بنِ عصيةَ بنِ امرئِ القيسِ بنِ زيدِ ابنِ مناة بنِ تميم .

وكانَ عديٌّ هذا جميلَ الوجهِ ، فائقَ الحُسنِ ، بهيَّ الطَّلْعةِ ، وكان شاعراً مُجيداً ، وخطيباً بارعاً ، ومتكلِّماً فصيحاً ، تعلَّمَ اللغتينِ العربيةَ والفارسيةَ

وأجادَهما ، ونطقَ الشعرَ منذ حداثتِه ، وتعلَّمَ الرمايةَ والفروسيةَ ، فكانَ يجمعُ بين الذكاء والعلمِ والثقافةِ والفروسية ، ذلك أنه منذُ صغَرِه ألحقَه أبوهُ إلى الكُتّابِ، ثمّ ضمَّهُ الدِّهقانُ[1] مع ابنِهِ شاهانْ مَرْدْ إلى كُتّاب الفارسية ، فخرجَ من أعلمِ الناسِ وأفصحِهم بالعربيةِ والفارسية ، كما تعلَّم لعبَ العجمِ على الخيلِ بالصوالجةِ[2] وغيرها ، فكانَ من الأساورةِ[3] الرماة .

ثم إنَّ الدِّهقانَ وفِدَ على كسرى ومعه ابنُه شاهانْ مرَدْ ، فأثبتَه كسرى مع سائرِ أولادِ الدِّهقانِ في صحابته .

ثم قال الدِّهقانُ لكسرى : إنَّ عندي غلاماً من

---

[1] الدِّهقان : هو التاجرُ ، أو زعيم القرية .

[2] الصوالجة : جمع صولجان ، وهو عصا يُضرَبُ بها على الدوابّ .

[3] الأساورة : جمع أسوار ، وهو مَن يُجيدُ الرميَ بالسهام .

العربِ خلَّفهُ أبوه في حجري ، فربَّيتُه ، وهو غلامٌ جميلٌ وذكيٌّ ، فإنْ رأى الملكُ أنْ يُثبتَه مع ولدي فعَلَ .

فقال الملكُ : ادعُهُ .. فأحضرَه الدِّهقانُ ، فرآه الملكُ جميلَ الوجهِ ، فائقَ الحسنِ ، فلمّا كلَّمه وجدَه أظرفَ الناسِ ، وأحضرَهم جواباً ، وكانتِ الفُرْسُ تتبرَّكَ بالوجه الجميل ، فرغبَ فيه الملكُ ، وأثبتَه مع ولدِ الدِّهقانِ ، فكانَ عديٌّ أوّلَ من كتبَ بالعربية في ديوان كسرى .

ولبثَ عديٌّ في ديوان كسرى مدةً طويلةً اكتسبَ خلالَها ثقافةً فارسيةً كبيرةً وواسعة ، وحَظِيَ بمركزٍ عظيمٍ ومرموقٍ ، ونالَ حبَّ وثِقَةَ الملكِ ، فإذا أرادَ المقامَ بالحِيرةِ استأذنَ كسرى فأذِنَ له ، فأقامَ فيها ما شاءَ أن يقيمَ ، ولم يزلْ مقرَّباً من كسرى حتى أصبحَ من خاصّتهِ ، وممثِّلاً عنه ورسولاً منه إلى الملوك ،

فلقد أرسلَه الملكُ يوماً بهديّةٍ إلى ملك الروم ، زارَ خلالَها دمشقَ وبقيَ فيها زمناً ، وقال فيها شعراً جميلاً ، فكانَ مما قالَ :

ربَّ دارٍ بأسفلِ الجزعِ من دو مةَ أشهى إليَّ من جيزونْ[1]
وندامى لا يفرحون بمَا نالوا ولا يرهبون صرفَ الْمَنونْ
قد سُقيتُ الشَّمولَ في دارِ بِشرٍ قهوةً مُزَّةً بماءٍ سخينْ[2]

وفي فترةِ غيابه في دمشقَ ، فسَدَ أمرُ الحيرةِ ، وثارَ أهلُها على ملِكِهم المنذرِ وهمُّوا بقتله ، لأنه كان لا يعدِلُ بينَهم ، ويأخذُ من أموالِهم ما يعجبُه ، فلمّا تيقَّنَ أنَّ أهلَ الحيرةِ سيقتلونه بعثَ إلى زيدِ بنِ حمادٍ ، وقال له : يا زيدُ ، أنتَ خليفةُ أبي ، وقد بلغني ما أجمعَ عليه أهلُ الحيرةِ ، فلا حاجةَ لي في مُلْكِكم، دونكموه ،

---

[1] دومة: من منازل جذيمةَ الأبرش. وجيزون: بناءٌ عند باب دمشق.
[2] المزّة : الخمرة .

مَلِّكوهُ مَنْ شئتُم .

فقال زيدٌ : إنَّ الأمرَ ليس إليَّ ، ولكني أسيِّرُ لك هذا الأمرَ ، ولا آلوكَ نُصحاً[1].

ثم اتفقا مع أهلِ الحيرةِ على اقتسامِ الحكمِ ، فتولّى زيدٌ كلَّ شيءٍ سوى اسمِ الملكِ فقد بقيَ للمنذر .

وتمرُّ الأيامُ ويعودُ عديٌّ إلى المدائن حاملاً إلى كسرى هدايا قيصرَ ، فصادفَ أباه والدِّهقانَ الذي ربّاه قد هلَكا جميعاً ، فاستأذنَ كسرى أن يعودَ إلى الحيرةِ ليُشرفَ على أحوالِها ، فأذِنَ له .

لم يكنْ عديٌّ من الذينَ يرغبونَ في الحكم ، أو يحبُّونَ الْمُلْكَ ، إنما كانَ يعشقُ الارتحالَ والأسفارَ ، ويحبُّ الصيدَ واللَّهوَ واللعبَ ، ويُؤْثِرُ ذلك على الملك

---

[1] لا آلوكَ نُصحاً : لا أقصِّرُ في نصحك .

والسلطان ، ولم يزلْ متنقِّلاً بين الحيرة والمدائنِ ، ويخدُم كسرى ، حتى تزوّجَ هنداً بنتَ النعمان بنِ المنذر .

تتويجُ النعمانِ بنِ المنذر ملِكاً على الحِيرة

موقع الحيرة :

تقعُ الحيرةُ على بُعْدِ ثلاثةِ أميالٍ من مكانِ الكوفةِ في موضعٍ يقال له : النجف ، على ضفةِ الفراتِ الغربيةِ في حدود الباديةِ بينها وبين العراقِ ، وتقعُ الآنَ في الجنوبِ الشرقي من مشهد عليٍّ ﷺ .[1]

وإنّما سُمِّيتْ بالحِيرةِ لِمَا ذكر الطبريُّ عن أحدِ ملوكِ التبابعةِ : أنَّ أسعدَ بنَ كربٍ شَخَصَ متوجِّهاً من اليمنِ في الطريقِ الذي سلَكَهُ الرائشُ حتى خرجَ على

---

[1] العالم الإسلامي .

جبلي طيّئٍ ، ثم سارَ يريدُ الأنبارَ ، فلمّا انتهى إلى الحيرةِ وذلك ليـلاً تحيَّرَ فأقـامَ مكانَـه ، وسُـمِّيَ ذلـكَ الموضـعُ الحيرةَ ، وخلَّفَ به قوماً من الأزدِ ولخمٍ وجـذامَ وعاملـةَ وقضاعةَ ، فبنَوا وأقاموا به ، ثم انتقـلَ إليهـم بعـدَ ذلـكَ ناسٌ من طيِّئٍ وكلب .

وقـال الطـبريُّ : وعمـرُو بـنُ عـديٍّ أوَّلُ مَـنِ اتّخذَ الحيرةَ منزلاً مـن ملـوكِ العـربِ ، وأوّلُ مـن تجـدُهُ أهلُ الحيرةِ في كتبهم مـن ملـوكِ العـربِ بـالعراقِ وإليـه يُنسَبونَ .[1]

ومنذ أُسِّسَتْ إمارةُ الحيرةِ عامَ ٢٤٠ م كما تقـدَّمَ وليَ عليها عمرُو بنُ عدي ، ولا يـزالُ المُلْـكُ في عائلتِـهِ اللخميَّـةِ التي تنتسـبُ إلى الديانـةِ النصرانيـةِ حتى سـنـةَ

---

[1] تاريخ الطبري ج ٢ .

٦٠٥ بعد الميلادِ .

قال ابنُ خلدونَ : ولَمّا هلكَ عمرُو بنُ عديٍّ وليَ بعدَه على العربِ وسائرِ مَن ببادِيةِ العراقِ والحجازِ والجزيرةِ امرؤُ القيسِ بنُ عديّ ، ويقالُ له : البدءُ ، وهو أوَّلُ من تنصَّرَ من ملوكِ آلِ نصرٍ وعُمّالِ الفرسِ .[1]

قال المسعوديُّ : وكانتْ عدّةُ الملوكِ بالحِيرةِ ثلاثةً وعشرينَ مِلِكاً من بني نصرٍ وغيرِهم من العربِ والفُرْسِ ، وكان مُدَّةُ ملْكِهم ستمائة واثنتين وعشرين سنةً وثمانيةَ أشهرٍ .[2]

وهم المناذرةُ بنو عديّ بنِ نصرِ بنِ ربيعةَ من ولدِ لخمِ بنِ عديٍّ بنِ سبأٍ ، ولا يزالُ المُلْكُ فيهم حتى انتهى

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٢ .

(٢) مروج الذهب للمسعودي ج ١ .

إلى النعمان بنِ المنذرِ ، وهو الذي سيكونُ محورُ الحديثِ دائراً عن تتويجه ملِكاً على الحيرةِ .

دورُ عديٍّ بنِ زيدٍ في تتويجِ النعمان

كان للمنذرِ ابنان : أحدُهما النعمانُ ، وكان في حِجْرِ آلِ عديٍّ بنِ زيدٍ ، فهمُ الذين أرضعوهُ وربَّوهُ ، وكان له ابنٌ آخرُ في حِجْرِ بني مرينا يقال له : الأسود ، وكان له سواهما من الولدِ عشرةٌ ، وكان يقال لوُلْدِهِ : الأشاهبُ لجمالِهم ، وكانَ النعمانُ من بينهم أحمرَ أبرشَ قصيراً، فلمّا احتضرَ المنذرُ أوصى بأولادهِ إلى إياسِ ابنِ قبيصةَ الطائي ، وملّكه على الحيرةِ إلى أنْ يرى كسرى رأيَهُ، فمكثَ مُمَلَّكاً عليها أشهراً، وكسرى بنُ هرمزَ في طلبِ رجلٍ يُمَلِّكُه عليهم ، فقال لعديٍّ بنِ زيدٍ : مَنْ بقيَ من آلِ المنذر؟ وهل فيهم أحدٌ فيه خيرٌ ؟

فقال : نعم ، أيُّها الملكُ السعيدُ ، إنَّ في ولدِ المنذرِ بقيّةً ، وفيهم كلِّهم خيرٌ .

فقال : ابعثْ إليهم فأحضِرْهم .[1]

فكتبَ إليهم عديُّ بنُ زيدٍ يستقدمُهم ، فقدموا عليه ، فكانَ يتظاهرُ أنه يفضِّلُ إخوةَ النعمانِ عليه ، ويُريهمْ أنَّهُ لا يُريدُه دونَهم ، وجعلَ يخلو بهم رجلاً رجلاً ، ويقولُ لهم : إنْ سألكمُ الملكُ : أتكفونني العربَ ؟ فقولوا : نكفيكَهم إلاّ النعمانَ .

وقال للنعمان : إنْ سألَكَ الملكُ عن إخوتكَ فقلْ له : إنْ عجزتُ عنهم فأنا عن غيرِهم أعجزُ .

وكانَ من بني مرينا رجلٌ يقالُ له : عديُّ بنُ أوسِ ابنِ مرينا ، وكان داهيةً ماكراً ، وشاعراً فصيحاً ، فقال

---

[1] أيام العرب في الجاهلية .

للأسودِ بنِ المنذرِ : إنكَ قد عرفتَ أني لـكَ راجٍ ، وأنَّ طلبتي ورغبتي إليك أن تُخالفَ عديَّ بنَ زيدٍ فإنـه وا لله لا ينصحُ لك أبداً .

فلم يلتفتِ الأسودُ إلى قولِهِ ، و لم يُنفِّذْ له ما طلبَ منه .

فلمّا أمرَ كسرى عـديَّ بـنَ زيـدٍ أن يُدْخِـلَ عليـه أبناءَ المنذرِ ، جعلَ يُدْخلُهمُ الواحدَ بعدَ الآخرِ ، فيُكلِّمُـهُ في الأمرِ ، فكانَ يـرى رجـالاً قلَّمـا رأى مثلَهـم ، فـإذا سألَهم : هل تكفونني ما كنتُم تَلُـونَ ؟ قـالوا : نكفيـكَ العربَ إلاّ النعمانَ .

فلمّا دخلَ عليه النعمانُ رأى رجلاً دميماً ، فكأنـه استصغرَ شأنَه فلـم يحفـلْ بـه ، فقـال لـه : أتسـتطيعُ أن تكفيَني العربَ ؟

قال : نعم .

قال : فكيفَ تصنعُ بإخوتك ؟

قال : إنْ عجَزتُ عنهم فأنا عن غيرهم أعجزُ .

فأُعجِبَ بـه وبكلامـه ، وحسـنِ جوابـهِ ، فملّكـه وكساه ، وألبسَهُ تاجاً قيمتُهُ ستونَ ألفَ درهـمٍ مرصَّعـاً باللؤلؤِ والذهبِ وأنواعِ الجوهرِ ، فلمّا خرجَ من مجلـسِ كسرى ورآه عديُّ بنُ أوسِ بنِ مرينا ، وقد تُوِّجَ مِلِكـاً نظرَ إلى الأسودِ وقال له : دونَـكَ ، فـإنكَ قـد خـالفتَ الرأيَ .

ثم إنَّ عديَّ بنَ زيدٍ صنعَ طعاماً ودعـا إليـه عـديَّ ابنَ أوسِ بنِ مرينا ، وقال له : يا عـديُّ ، إنَّ أحـقَّ مَـنْ عرفَ الحقَّ ثم لم يَلُمْ عليـه مَـنْ كـان مثلَـك ، إنـي قـد عرفتُ أنَّ صاحبَكَ الأسودَ بنَ المنذرِ كانَ أحـبَّ إليـكَ أن يُمَلَّكَ من صاحبي النعمان ، فـلا تَلُمْـني علـى شـيءٍ كنتَ على مثلـه ، وأنـا أحبُّ ألاّ تـحـقـدَ عليَّ شيئاً لـو

قدرتَ عليه ركبتَه ، وأنا أحبُّ أن تعطيَني من نفسكَ ما أعطيتُك من نفسي ، فإنّ نصيبي من هذا الأمر ليسَ بأوفرَ من نصيبكَ .. ثم قام عديٌّ بنُ زيدٍ إلى البيعةِ فحلفَ ألاّ يهجوَه ولا يبغيَه غائلةً أبداً ، ولا يزوي عنه خيراً أبداً .

فلمّا فرغَ عديٌّ بنُ زيدٍ من كلامِهِ قامَ عديٌّ بنُ مرينا فحلفَ على مثلِ يمينهِ ألاّ يزالَ يهجوه أبداً ، ويبغيه الغوائلَ ما بقيَ .

وخرجَ النعمانُ حتى نزلَ منزلَهُ بالحيرةِ مَلِكاً عليها فقال عديٌّ بنُ مرينا لعديٍّ بنِ زيدٍ :

ألا أبلغْ عديّاً عن عديٍّ فلا تجزعْ وإنْ رثّتْ قواكا[1]

هياكلُنا تبزُّ لغيرِ فقرٍ لتحمدَ أو يتمَّ به غناكا[2]

---

(1) رثّت : ضَعُفَتْ .

(2) تبزُّ : بزبزَ الشيءَ رمى به ولم يُردْه .

فإنْ تظفرْ فلم نظفرْ حميـداً وإنْ تعطبْ فلا يبعدْ سـواكـا[1]
ندمت ندامةَ الكسعيّ لَمّـا رأتْ عيناكَ مـا صنعتْ يداكـا

وقال عديٌّ بنُ مرينا للأسودِ بنِ المنذرِ : أمـا إذا لم تظفرْ فلا تعجزْ أنْ تطلبَ بثأركَ من هـذا المعـدّي الـذي عملَ بك ما عملَ ، فقد كنتُ أخبرتُك أن مَعَدًّا لا ينـامُ مكرَهاً ، أمرتُك أن تعصيَه فخالفتْني .

قال الأسودُ : فما تريدُ ؟

قال : أريدُ أن لا يأتيَكَ فائدةٌ من مالِكَ وأرضِـكَ إلاّ عرضتَها عليَّ ... ففعلَ .

مقتلُ عديّ بنِ زيدٍ

كان ابنُ مرينا كثيرَ المـالِ والضَّيعـةِ ، فلـم يـكُ في الدهرِ يومٌ إلاّ على بابِ النعمان هديّةٌ مـن ابـنِ مرينـا ،

---

[1] تعطب : تهلك .

فصارَ من أكرمِ الناسِ عليه ، وكان لا يقضـي في مُلْكِهِ شيئاً إلاّ بأمرِ عديٍّ بنِ مرينا ، وكان إذا ذُكِرَ عديٌّ بنُ زيدٍ عندَه أحسنَ عليه الثناءَ وذكرَ فضلَه وقال : إنه لا يصلحُ المعديُّ إلاّ أن يكونَ فيه مكرٌ وخديعةٌ .

ورأى الناسُ منزلةَ ابنِ مرينا عندَ النعمان فلزموهُ وتابعوه ، فجعلَ يقولُ لِمَنْ يثقُ به من أصحابهِ : إذا رأيتُموني أذكرُ عديّاً عند الملكِ بخيرٍ فقولوا له : إنه لكذلك ، ولكنه لا يسلمُ عليه أحدٌ ، وإنه ليقول : إن الملِكَ ـ يعني النعمان ـ عاملُهُ ، وإنّه هو ولاّه ما ولاّه ، فلم يزالوا به حتى شحنوه حقداً وكراهيةً ، وأوغروا صدرَه عليه ، وزوّروا على لسانه كتاباً إلى قهرمانَ[1] له ، ثم دسُّوا إليه حتى أخذوا الكتابَ منه ، وأوصلوه

---

[1] القهرمان : أمينُ الملك وخاصتُه عند الفُرْس .

إلى النعمـان الـذي قـرأه ، فاشـتدّ غضبُـه ، وأضمـرَ لـه المكيدةَ والانتقامَ ، وحاولَ أن يستدعيَه إليـه ليبطـشَ بـه وينتقـمَ منـه ، فأرسـلَ إليـه يقـولُ لـه : عزمـتُ عليـكَ إلاّ زرتَني ، فإني قد اشتقتُ إلى رؤيتِكَ .

وعديٌّ بـنُ زيـدٍ يومئـذٍ عنـد كسـرى ، فاسـتأذنه بالرحيلِ إلى الحِيرةِ ، فأذنَ له ، ولم يكَدْ عديٌّ يطأُ أرضَ الحيرةِ ويدخـلُ علـى النعمـان حتـى أمـرَ بـالقبضِ عليـه وإلقائـهِ في زنزانـةٍ مظلمـةٍ لا يدخـل عليـه فيهـا أحـدٌ ، ولا يعلمُ أحدٌ عنه شيئاً .. وعـديٌّ بـنُ زيـدٍ في سـجنهِ يرسُفُ بأغلاله ، وينظمُ الشعرَ الحزينَ ، يبثُّ فيـه آلامَـهُ وأحزانَه وما يلقاهُ في سجنِ النعمان جـزاءَ مـا قـدَّمَ إليـه من إحسانٍ أن يُلقى في السجنِ رهينَ السلاسلِ والقيـودِ والأغـلال ، فكـانَ مـن جيّـدِ شـعرِه مـا قالـه في سـجنِ النعمان :

سعى الأعداءُ لا يألونَ شرّاً عليَّ وربِّ مكةَ والصَّليبِ
أرادوا كي تمهَّلَ عن عديٍّ لِيُسْجَنَ أو يُدهدَهَ في القَليبِ[1]
وكنتُ لزازَ خصمكَ لم أُعرِّدْ وقد سلكوك في يومٍ عصيبِ[2]
أغالبُهم وأبطنُ كلَّ سرٍّ كما بين اللحاءِ إلى العسيبِ[3]
ففزتُ عليهمُ لَمّا التقينا بتاجكَ فوزةَ القِدْحِ الأريبِ
وما دهري بأنْ كُدِّرتُ فضلاً ولكنْ ما لقيتُ من العجيبِ
ألا مَنْ مُبلغُ النعمانِ عنّي وقد تُهدى النصيحةُ بالمغيبِ
أحظّي كان سلسلةً وقيداً وغُلاًّ والبيانُ لدى الطبيبِ
أتاكَ بأنني قد طال حبسي ولم تسأمْ بمسجونٍ حريبِ[4]
وبيتي مقفرٌ إلاّ نساءً أراملَ قد هلكْنَ من النحيبِ

---

(1) دهده الشيَ : حدرهُ من علوٍّ إلى سفل ، والقليب : البئر .

(2) لزاز خصمك : أي لا أدَعُ خصمَكَ يخالفُ ويعاندُ ، ولم أُعرِّدْ : لم أهربْ وأفرّ .

(3) العسيب : جريد النخل ، واللحاء : قشر الشجر .

(4) الحريب : من سُلِبَ مالُه .

يُبادِرْنَ الدموعَ على عديٍّ كشنٍّ خانه خرزُ الربيبِ[1]

يُحاذرنَ الوشاةَ على عديٍّ وما اقترفوا عليه من الذنوبِ

فإنْ أخطأتُ أو أوهمتُ أمراً فقد يَهِمُ المصافي بالحبيبِ

وإنْ أَظْلِمْ فقد عاقبتموني وإن أُظلَمْ فذلك من نصيبي

وإنْ أهلِكْ تجدْ فقدي وتُخذَلْ إذا التقتِ العوالي في الحروبِ

فهلْ لكَ أن تُداركَ ما لدينا ولا تُغلَبْ على الرأيِ المصيبِ

فإني قد وكَلْتُ اليومَ أمري إلى ربٍّ قريبٍ مستجيبِ

ولا يزالُ عديٌّ قابعاً في سجنه ، يرسُفُ في أغلاله وقيودِهِ حتى طالَ سجنُه ، ولم يشعرْ به أحدٌ ، فكتبَ إلى أخيه أُبَيّ ، وكان مع كسرى بالمدائنِ :

أبلغْ أُبَيّاً على نأيِهِ وهل ينفعُ المرءَ ما قد علِمْ

بأنَّ أخاكَ شقيقَ الفؤا دِ كنتَ به واثقاً ما سَلِمْ

لدى ملِكٍ موثَقٌ بالحد يدِ إمّا بحقٍّ وإما ظُلِمْ

---

[1] الشنُّ : كلُّ آنيةٍ صُنعتْ من جلد ، والربيب : المصلح .

فلا أعرفنْكَ كذاتِ الـغـلا م ما لم تجدْ عارماً تعترمْ[1]

فأرضَكَ أرضَكَ إنْ تأتِنـا تنمْ نومـةً ليس فيها حُلُـمْ

ويبلـغُ كتـابُ عـديٍّ أُبيّـاً ، فينهـضُ إلى كسـرى لِيُخبرَه بأمرِ عديٍّ ، وما إنْ سمعَ كسرى بهذا الخبرِ حتى استشاطَ غضباً، وكتبَ فوراً إلى النعمان يأمرُهُ بإطلاقـهِ، وبعثَ معه رجلاً ـ وكان خليفةً للنعمان عند كسرى ـ فأخذَ رسولُ كسـرى الكتـابَ وانطلـقَ بـه إلى الحـيرةِ ، فدخلَ على عديٍّ في سجنهِ قبلَ أنْ يذهبَ إلى النعمان ، وقال له : يـا عـديُّ ، إنـي قـد جئـتُ بإرسـالِكَ ، فمـا عندَك ؟

قال : عندي الذي تحبُّ ، ووعَدَه بعطـاءٍ جـزيلٍ ،

---

[1] ذات الغلام : الأمّ المرضع ، والعـارم : الراضـع ، والمـراد كمـا في اللسان : إنْ لم تجدْ من ترضعُه درّتْ هي فحلبت ثديَها ، ويقال هـذا لمن يتكلّف ما ليس من شأنه .

وقال له : لا تخرجنَّ من عندي ، وأعطني الكتابَ حتى أُرسلَ به ، فإنك وا لله إنْ خرجتَ من عندي لأُقتلَنَّ .

فقال : لا أستطيعُ إلاّ أنْ آتيَ النعمانَ بالكتابِ فأوصلَه إليه .

فانطلقَ بعضُ مَنْ كان هناك من أعدائه ، وأخبرَ النعمانَ أنَّ رسولَ كسرى دخلَ على عديٍّ وهو ذاهبٌ به ، وإنْ فعلَ فوا لله لم يَسْتبقِ منّا أحداً أنتَ ولا غيرَك .

فبعثَ النعمانُ مَنْ قتلَ عديّاً في السجنِ .

ودخلَ رسولُ كسرى على النعمان ودفعَ إليه الكتابَ ، فقال : نعم وكرامة ، وبعثَ إليه بأربعةِ آلافِ مثقالٍ وجارية ، وقال له : إذا أصبحتَ فادخلْ عليه فأخرجْه أنتَ بنفسِكَ .

وفي الصباحِ توجَّه نحوَ السجنِ ، فلمّا رآه الحرسُ قال له : إنه قد ماتَ منذ أيامٍ فلم نجترئ على أنْ نُخبرَ

الملكَ خوفاً منه ، وقد علمنا كراهتَه لموته .

فرجعَ الرسولُ إلى النعمان فقال : إني قـد دخلـتُ عليه وهو حيٌّ ، وجئتُ اليومَ فذكرَ ليَ السَّجّانُ أنـه قـد ماتَ منذ أيامٍ ، فغضبَ النعمانُ وقال : يبعثُك الملكُ إليَّ فتدخـلُ إليـه قبلـي !! كذبـتَ ولكنّـك أردتَ الرشـوةَ والخبثَ ، وجعلَ يتهدَّدُه ويتوعّدُه ، ثم ذكرَ مكانتَه عند كسـرى فخشـيَ أن يخبرَه بذلــك ، وأخــذ يسـتلطفُه ويكرمُه حتى استوثقَ منه ألاّ يُخبرَ كسرى بشيءٍ ، وأنه قد ماتَ قبلَ أن يقدمَ عليه ، ورجع إلى كسرى فأخـبرَه أنَّ عديّاً ماتَ في السجنِ قبل أن يصِلَ إليه .

ندمُ النعمان على قتلِ عديٍّ بنِ زيد

نَدِمَ النعمانُ على مـوتِ عـديٍّ ، وأدركَ أنَّ هـذا كان نتيجـةَ الـمؤامرات والدسـائس التي دبّرها عديُّ بنُ

مرينا ومَنْ معه مــن بطانــةِ السـوء الذيـن لا يريـدون لـه ولُمْلكِه إلاّ الزوالَ والدَّمارَ ، وأحسَّ بموتِ عديٍّ أنه فقدَ أكبرَ عونٍ وأقوى سندٍ له عند الملك كسرى ، هنا شـعرَ النعمانُ أنه لم يُقابلِ الإحسانَ بمثلهِ ، إنما قابلَه بالإساءةِ ، واستبدلَ بالمعروفِ جحوداً ، وبالخيرِ نُكراناً .

وبينما هو في عذابه النفسي ، وتلوُّمِه وتندُّمه علـى ما فعلَ وكان قد خرجَ في بعضِ صيـدِهِ ذاتَ يـومٍ ، إذِ التقى بأحدِ أبناء عديّ ، وكانَ فتًى جميلاً وسـيماً كثـيرَ الشبهِ بأبيه ، فلمّا رآه عرَفَ شبَهَه فقال : مَنْ أنتَ ؟

قـال : أنـا زيـدُ بـنُ عـديٍّ بـنِ زيـدٍ وتبـادلَ معـه أطرافَ الحديثِ ، فإذا هــو شـابٌّ ذكـيٌّ فَطِـنٌ ، يُجيـدُ اللباقةَ والكياسةَ ، ففرحَ به وأكرمَهُ وقرَّبـه وخلـعَ عليـه العطايا ، واعتذرَ إليه من أمرِ أبيه ، ثمّ جهّزه وسَيَّرَه إلى كسـرى ، وزوّده بكتابٍ قال فيـه : إنَّ عديّاً كانَ مِمَّنْ

أُعينَ به الملكُ في نُصحهِ ولُبِّه ، فأصابهُ ما لا بدَّ منه ، وانقضتْ مدَّتُه ، وانقضى أجلُه ، ولم يُصَبْ به أحدٌ أشدَّ من مصيبتي ، وأمّا الملكُ فلم يكنْ ليفقدَ رجلاً إلاّ جعلَ اللهُ له منه خَلَفاً ، لِما عظّمَ اللهُ له من مُلْكهِ وشأنِهِ ، وقد أدركَ له ابنٌ ليس دونَهُ ، وقد رأيتُه يصلحُ لخدمةِ الملِكِ ، فسرَّحتُه إليه ، فإنْ رأى الملكُ أنْ يجعلَه مكانَ أبيه ، فلْيفعلْ .

فقبلَهُ الملكُ وعيَّنهُ في بلاطهِ ، فكانَ من خاصّتهِ والمقرَّبينَ لديه ، فلمّا وقعَ عندَهُ هذا الموقعَ ، سألَهُ كسرى عنِ النعمان ، فذكرهُ بخيرٍ وأثنى عليه ..

ومكثَ زيدُ بنُ عديٍّ في بلاط كسرى سنواتٍ بمنزلةِ أبيهِ مُعزَّزاً مكرَّماً .

مقتلُ النعمان بنِ المنذر

أحبَّ كسرى زيدَ بنَ عديّ كما كـانَ يحـبُّ أبـاه عَديّاً ، وأُعجِبَ به وقرَّبه منه ، فكانَ زيدٌ يُكثرُ الدخولَ عليه والقيام بخدمتهِ .

وكـانتْ لملـوكِ العجـمِ صفـةٌ مـن النسـاء مكتوبـةٌ عندَهم ، فكانوا يبعثونَ بتلك الصفةِ في بعضِ البلـدان ، فإذا وُجدَتْ في امرأةٍ حُمِلَـتْ إلى الملِـكِ ، غـيرَ أنهـم لم يكونـوا يتنـاولون أرضَ العـربِ بشـيءٍ مـن ذلـك ، ولا يطلبونها عندَهم ، ثـم بـدا للملـك أن يطلُـبَ تلـك الصفةَ ، فدخلَ عليه زيدُ بنُ عديّ وقد عـرفَ مـا يريـدُ الملكُ ، فقال له : إني رأيتُ الملكَ قـد كتـبَ في نسـوةٍ يُطلَبْنَ له ، وقرأتُ الصفةَ التي يريدُها ، وقد كنـتُ بـآلِ المنذرِ عالِماً ، وعندَ عبـدِك النعمـان مِـنْ بناتِـهِ وأخَواتِـهِ وبناتِ عمِّه أكثرُ من عشرينَ امرأةً على هذه الصفة .

قال : فتكتبُ فيهنَّ ؟

قال : أيُّهـا الملـكُ ، إنَّ شـرَّ شـيءٍ في العـربِ وفي النعمان خاصّةً أنهم يتكرَّمونَ ـ زعموا في أنفسِهم ـ عن العجـم ، فأنـا أكـرهُ أن يُغيِّبَهـنَّ عمَّـنْ تبعـثُ إليـه ، أو يَعرِضُ عليه غيرَهنَّ ، وإن قدمتُ أنا عليه لم يقدِرْ أن يُغيِّبَهنَّ ، فابعثني وابعثْ معيَ رجـلاً مـن حرَسِـكَ يفقـهُ العربيةَ حتى أبلغَ ما تحبُّه .

فبعثَ معه رجلاً جليداً ، فخرجَ به زيدٌ حتى بلـغَ الحيرةَ، فلمّا دخلا على النعمان رحَّبَ بهما وأكرمَهمـا، ثم قال له زيـدٌ : إنَّ الملـكَ قـدِ احتـاجَ إلى نسـاءٍ لأهلـه وولدِه ، وأرادَ كرامتَك بصهرِه فبعثَ إليك .

قال النعمانُ : وما هؤلاء النسوةُ ؟

قال زيدٌ : صفتُهنَّ مكتوبةٌ .. وقرأها عليه وكانت كثيرةً مُثْبتةً .

فقال النعمانُ لزيدٍ ـ ورسولُ كسرى يسمعُ ـ :

أما في عِينِ السوادِ وفارسَ ما تبلغونَ حاجتَكم ؟!

فقال الرسولُ لزيدٍ : ما العِينُ ؟

قال : البقرُ .

ثم قال زيدٌ للنعمان : إنما أرادَ كرامتَك ، ولو علمَ أنَّ هذا يشقُّ عليكَ لم يكتبْ إليكَ به .

وكتبَ النعمانُ إلى كسرى : إنَّ الذي طَلَبَ الملكُ ليس عندي ، وقال لزيدٍ : اُعذرني عندَه ..

فلمّا رجعَ إلى كسرى قال : هذا كتابُهُ .. وقرأه عليه ، فقال له كسرى : فأينَ الذي كنتَ أخبرتَني به ؟

قال : كنتُ أخبرتُك بضنِّهم[1] بنسائهم على غيرِهم ، وأنَّ ذلك من شقائِهم واختيارِهمُ الجوعَ

---

[1] الضنّ : البخل .

والعُرْيَ على الشِّبَع والرياشِ ، واختيارِهمُ السمومَ والرياحَ على طيبِ أرضِكَ هذه ، حتى إنهم لَيُسَمُّونها السجنَ ، فسلْ هذا الرسولَ الذي كان معي عن الذي قال ، فإني أُكَرِّمُ الملكَ عن الذي قال .

فقال الملكُ للرسول : وما قال ؟

قال : أيُّها الملكُ ، قال : أما في بقرِ السوادِ وفارسَ ما يكفيه حتى يطلبَ ما عندنا ؟!

فغضبَ الملكُ غضباً شديداً ، وظهرَ ذلك على وجهه ، ووقعَ في قلبهِ منه ما وقعَ ، ولم يزدْ على أنْ قال : رُبَّ عبدٍ قد أرادَ ما هو أشدُّ من هذا ، ثم صارَ أمرُه إلى التباب[1].

وشاعَ هذا الكلامُ وانتشرَ بين الناس ، وأخذوا

---

[1] التباب : الهلاك .

يتناقلونَه حتى بلغَ النعمانَ الـذي أخـذَ يتوقّـعُ الشـرّ مـن كسرى ويستعدُّ له ، حتى أصبحَ في دوَّامةٍ مــن الخـوفِ والقلقِ لا تُفارقُه ولا تنفكُّ عنه في ليـلٍ ولا نهـارٍ ولا في صَحْوٍ ولا نومٍ ، حتى جاءهُ كتـابُ الملـكِ : أنْ أقبـلْ ، فإنَّ للملكِ إليكَ حاجةً .

فأيقنَ النعمانُ أنَّ كسـرى قاتلُـه لا محالـةَ ، ولكـنْ ماذا عليه أن يفعلَ ؟ وأين يحتمي ؟ وبِمَنْ يمتنعُ من انتقام كسرى وغضبتِهِ ؟ إنَّ أحداً لا يستطيعُ أن يُدافـعَ عنـه ، لأنه لا أحدَ يملكُ القدرةَ على أنْ يدافعَ عنه ، وإنَّ أحداً لا يملكُ أن يحميَه ، لأنـه لا أحـدَ يملـكُ القـوةَ علـى أن يحميَه ، بل ولا أحدَ يملكُ الجرأةَ أن يقفَ أمـامَ كسـرى وجحافلِهِ القويةِ وجيوشِهِ الجـرَّارةِ فضـلاً عـن أنْ يقاتلَـه أو يتصدَّى له في معركةٍ غيرِ متكافئةٍ .

ما على النعمـان بعـد تقليبِ الأمـورِ وتـمحيصِها

ودراسةِ الموقـفِ وتأمُّلِـهِ إلاّ أن يُذْعِـنَ للأمـرِ ، ويرضـى بالواقعِ ، فحملَ سلاحَه وما قويَ عليه ، ثم لحـقَ بجبـلِ طيّئٍ ، وكانَ متزوِّجاً منهم بامرأتين ، آمِـلاً أن يُدخلـوه في حمايتِهم ، ويمنعوه مـن تهديـدِ كسرى ، فـأبَوا عليـه خوفـاً مـن بطـش كسـرى وثورتـهِ ، وقـالوا لـه : لـولا صهرُكَ لقتلناك ، فإنه لا حاجةَ بنا إلى معاداةِ كســرى ، ولا طاقةَ لنا به .

فخـرجَ النعمـانُ مـن بـين أظهُرِهـم خَجـلاً يائسـاً مجروحَ القلبِ ، مكلومَ الفـؤادِ ، ينـدبُ حظَّـه ويأسـفُ لمصيرِه ، أنه لم يجدْ له في قبيلةِ طيِّئٍ مَـنْ يحميـه ، ويشـدُّ أزرَه ، أو على الأقلّ يُغيِّبُه بين جبلي طيِّئٍ سرّاً وخُفيةً .

وأخذَ يطوفُ على قبائلِ العربِ لعلَّه يجدُ منْ يحميه أو يقبلُه أو يجيرُه ، غيرَ أنَّ بني رواحةَ بنِ سـعدٍ مـن بـني عبسٍ قالوا : إنْ شئتَ قاتلنا معكَ ـ وذلك لِمِنَّـةٍ كانت

له عندَهم ـ فقال : لا أُحبُّ أنْ أُهلِكَكُم ، فإنه لا طاقـةَ لكم بكسرى .

فأقبلَ حتى نزلَ بذي قارٍ ، وهو ماءٌ لبكرِ بنِ وائلٍ قريبٌ من مكان الكوفـةِ ـ كمـا تقـدَّم ـ فدخـلَ علـى بني شيبانَ سرًّاً ، فلقيَ هانئَ بنَ مسـعودٍ ، وكـان سيّداً منيعـاً ، فاستجارَ بـه فأجـارَه ، وقـال لـه : قـد لزمـني ذمامُك ، وأنا مانعُك[1] مِمَّا أمنعُ نفسي وأهلي وولدِي منه ما بقيَ من عشيرتي الأدنين[2] رجلٌ .

قال الطبريُّ : قال بعضُهـم : لم يُـدْرِكْ هـانئُ بـنُ مسعودٍ هذا الأمرَ ، إنَّما هو هانئُ بنُ قبيصـةَ بـنِ هـانئِ ابنِ مسعود ، وهو الثَّبْتُ عندي .[3]

---

[1] مانعُك : حاميك .

[2] الأدنين : الأقربين .

[3] تاريخ الطبري ج ٢ .

ثم قال هانئُ بـنُ قبيصـةَ للنعمـان : إنَّ ذلـك غـيرُ نـافعِكَ ، لأنـه مُهلكـي ومهلكُـكَ ، وعنـدي رأيٌ لـك لستُ أشيرُ به عليك لأدفعَك عمّا تريده من مجـاورتي ، ولكنه الصواب .

فقال : هاتِهِ .

قال هانئُ : إنَّ كلَّ أمرٍ يجمُـلُ بـالرجلِ أنْ يكـونَ عليه إلاّ أنْ يكونَ بعدَ الْمُلْكِ سُوقةً ، والموتُ نازلٌ بكلِّ أحـدٍ ، ولأنْ تمـوتَ كريمـاً خـيرٌ مـن أنْ تتجـرَّعَ الـذُّلَّ أو تبقى سُوقةً بعدَ الملكِ ، هـذا إنْ بقيـتَ ، فـامضِ إلى صاحبكَ ، واحملْ إليه هدايا ومالاً ، وألقِ بنفسـكَ بـينَ يديه ، فإمّا أنْ صفحَ عنكَ فعدتَ ملكاً عزيزاً ، وإمّا أنْ أصابكَ فالموتُ خيرٌ من أن يتلعَّبَ بكَ صعاليكُ العربِ، ويتخطَّفَك ذئابُها ، وتأكلَ مالَك ، وتعيش فقيراً مجـاوراً أو تُقتَلَ مقهوراً .

قال النعمانُ : فكيف بحُرَمي ؟

قال : هنَّ في ذمتي لا يُخلَصُ إليهنَّ حتى يُخلَصَ إلى بناتي .

فمالَ النعمانُ إلى هذا الرأيِ واقتنعَ به وقال : هذا وأبيك الرأيُ الصحيحُ ولن أُجاوزَه .

وكتبَ إلى كسرى يعتذرُ إليه ، ويُعلِمُه أنه قادمٌ إليه ، واختارَ من الهدايا أثمَنها ، ومن الجواهرِ واليواقيتِ أنفسَها ، ومن الخيلِ والحُلَلِ أجودَها ، ثم أرسلَ بها إلى كسرى مع رسولٍ يُمثِّله ، فقبلَها وأمرَه بالقدومِ عليه ، فعادَ إليه الرسولُ فأخبرَه بذلك ، وأنه لم يرَ عندَ كسرى سوءاً ، ولا بأسَ عليه بالقدومِ إلى المدائنِ .

ومضى النعمانُ إلى كسرى بعدَ أن استودعَ هانئَ ابنَ قبيصةَ أموالَه وأهلَه ونَعمَه وابنتيه ، فلمَا بلغَ قنطرةَ

ساباط[1] لقيهُ زيدُ بنُ عديّ فقال له : أُنجُ نُعيمُ إن استطعتَ النجاءَ ، فأدركَ النعمانُ أنها مكيدةٌ دبَّرَها زيدُ ابنُ عدي ، فقال له : أفعلتَها يا زيدُ ؟ أمَا والله لئنْ عشتُ لأفعلنَّ بكَ ما فعلتُ بأبيكَ .. أو قال : لأقتلنَّكَ قِتلةً لم يقتلْها عربيٌّ قطُّ ، ولأُلحِقنَّكَ بأبيكَ .

فقال له زيدٌ : اِمضِ نُعيم ، فقد والله وضعتُ لك عندَه أَخيَّةً[2] لا يقطعُها المهرُ الأَرنُّ[3] .

فلمّا بلغَ كسرى أنه بالبابِ بعثَ إليه بعضُ الجندِ فقيَّدوه وألقَوه في السجن ، فلم يزلْ مسجوناً حتى وقعَ الطاعونُ فماتَ فيه .

وفي روايةٍ لابنِ الكلبيّ : ألقاه تحتَ أرجلِ الفيلةِ

---

[1] ساباط : موضع بالمدائن .

[2] الأخيّة : عُروةٌ تربطُ إلى وتد وتُشَدُّ فيها الدابّة .

[3] المهر الأرنّ : النشيط .

فدهستْهُ حتى ماتَ .

وبلغَ مقتلُ النعمان أهلَ الحِيرةِ فحزنوا عليه ، وسرعانَ ما تحوَّلَ الحزنُ إلى موجةٍ عارمةٍ من السُّخطِ والغضبِ حينَ وجَّهَ كسرى إياسَ بنَ قبيصةَ ملِكاً عليهم .

وراحَ أصحابُ النعمان وجلساؤه يُعَبِّرونَ عن عميقِ حُزنِهم وشدَّةِ أسَفِهم على موته ، وراحَ الشعراءُ يَنْظُمونَ قصائدَ الحزن في رثائهِ .

فهذا النابغةُ الذبياني ـ وكانَ من أقربِ الناسِ مجلساً من النعمان وأحبِّهم إليه ـ يقول :

مَنْ يطلبِ الدهرَ تُدركْه مخالبُهُ   والدهرُ بالوترِ ناجٍ غيرُ مطلوبِ
ما من أُناسٍ ذوي مجدٍ ومكرمةٍ   إلاّ يشدُّ عليهم شدَّةَ الذِّيبِ
حتى يعيدَ على عمدٍ سَراتهمُ   بالنافذاتِ من النبل المعاييبِ
إني وجدتُ سهامَ الموتِ مُعْرِضةً   بكلِّ حتفٍ من الآجالِ مكتوبِ

وهذا الشاعرُ الكبيرُ زهيرُ بنُ أبي سُلمى يرثيه بأبياتٍ لطيفةٍ تسري إلى السَّمعِ والقلبِ كما يسري نسيمُ الصباحِ الجميلِ ، فقال :

ألم ترَ للنعمان كان بنجدةٍ   من الشرِّ لو أنَّ امرأً كانَ باقيا
فلم أرَ مخذولاً له مثلُ مُلكِهِ   أقلَّ صديقاً أو خليلاً موافيا
خلا أنَّ حياً من رواحةَ حافظوا   وكانوا أُناساً يتّقونَ المخازيا
فقال لهم خيراً وأثنى عليهمُ   وودَّعهم توديعَ أنْ لا تلاقيا

كسرى وتَرِكَةُ النعمان

بعدَ مقتلِ النعمان استعملَ كسرى إياسَ بنَ قبيصةَ الطائيَّ على الحِيرةِ وما كانَ عليه النعمانُ ، ثم بعثَ إليه يأمرُهُ أنْ يجمعَ تَرِكةَ النعمان وما خلّفه من مالٍ وسلاحٍ ، ويرسلَ بها إليه ، وكانَ إياسُ بنُ قبيصةَ قد بلغَهُ أنَّ النعمانَ استودعَ تركتَه في بني شيبانَ عندَ هانئِ بنِ قبيصةَ بنِ هانئ بنِ مسعود ، فبعثَ إليه يأمرُه

أن يرسلَ بها إليه، وكتبَ له مهدِّداً، وقـال : لا تُكلِّفْـني أنْ أبعثَ إليــك ولا إلى قومِـكَ بـالجنودِ تَقتـلُ المقاتلـةَ ، وتَسبي الذُّرِّيةَ .

فردَّ عليه هانئُ بنُ قبيصةَ يقولُ : إنَّ الـذي بلغَـكَ باطلٌ ، وما عندي قليلٌ ولا كثيرٌ ، وإنْ يكنِ الأمرُ كما قيلَ ، فأنا أحدُ رجلين :

إمّا رجلٌ اسـتُودِعَ أمانـةً ، فهـو حقيـقٌ أن يردَّهـا على مَنِ ائتمنَه إياها ، ولنْ يُسَلِّمَ الحرُّ أمانةً .

أو رجلٌ مكذوبٌ عليه ، فليـسَ ينبغـي أن تـأخذَه بقولِ عدوٍّ أو حاسدٍ .

وكأني حين أنقلُ هذه الكلماتِ الرائعـةَ أنظـرُ إلى هانئِ بنِ قبيصةَ كنمـوذجٍ حـيٍّ للإنسـان العربـيّ الحـرّ، المعروفِ بوفائهِ وكرمه، وأدائِهِ للأمانةِ وبُعْدِه عن الخيانةِ وحِفظِهِ للعهدِ ، وثباتِهِ على المبدأِ ، وتمسُّـكِه بالـميثاق ،

ولو تعرَّضَ للموتِ والهلاك ، فهـو يبـذُلُ حياتَـهُ سـعيداً راضيـاً بمصـيرِهِ ، علـى أنْ لا تُهـانَ كرامتُـهُ ، أو يخـونَ أمانتَهُ ، أو يخفرَ ذمَّتَه ، أو يتخلَّى عن صفاتِهِ النبيلةِ الـتي فُطِرَ عليها وعُرِفَ بها .

ولَمّا بلغَ كسـرى أنَّ هـانئَ بـنَ قبيصـةَ رفـضَ أن يُسَلِّمَ الأمانةَ ، ثارَ وغضـبَ ، وهـدَّدَ وأوعـدَ ، وأرغـى وأزبدَ ، وراحَ يتوعَّدُه بشرٍّ مصيرٍ ، وأعلنَ أمامَ حاشـيتِهِ وأساورتِهِ أنْ سيستأصلُ بكرَ بنَ وائل جميعاً .

وهنا قامتْ بطانةُ الشرِّ مـن العربِ تعلـنُ ولاءَهـا لكسرى ، وتتآمرُ على أبناء جنسِها ، وتقدِّمُ له الخِطـطَ والآراءَ الـتي تخدمـه للقضـاء علـى إخوتِهـا ومَـنْ يتكلَّـمُ بلغتِها ، فقامَ خادمُه المطيعُ إياسُ بنُ قبيصةَ ـ وهو الـذي عيَّنَه كسرى بـالأمسِ ملِكـاً علـى الحـيرةِ ـ فقـال : إنَّ الـملِكَ لا يصلُحُ أنْ يعصيَه أحدٌ من رعيَّتِهِ ، وإنْ تُطعْني

لم تُعلِمْ أحداً لأيٍّ شيءٍ عبرتَ وقطعتَ الفراتَ فيرَوا أنَّ شيئاً من العربِ قد كرَبَك ، ولكنْ ترجعُ وتضربُ عنهم ، وتبعثُ عليهمُ العيونَ حتى ترى غِرَّةً منهم ، ثم تُرسلُ حلبةً[1] من العجمِ فيها بعضُ القبائلِ التي تليهمْ ، فيُوقِعُونَ بهِم وقعةَ الدَّهرِ ، ويأتونك بطَلِبَتِكَ .

فقال له كسرى : أنتَ رجلٌ من العربِ ، وبكرُ ابنُ وائل أخوالُك ، فأنتَ تتعصَّبُ لهم ولا تألوهم نُصحاً .

فقال إياسُ : رأيُ الملكِ أفضلُ .

فقامَ عمرُو بنُ عديّ بنِ زيد العباديّ ـ وكانَ كاتبَ كسرى وترجمانَه بالعربيةِ وفي أمورِ العربِ ـ فقال له : أَقِمْ أيُّها الملكُ ، وابعثْ إليهم بالجنودِ يكفوكَ .

---

[1] الحلبة : الدُّفعةُ من الخيل .

ثم قامَ النعمـانُ بـنُ زرعـةَ التغلبيُّ ـ وكـانَ يحـبُّ هلاكَ بكـرِ بـنِ وائـل والقضـاءَ عليهـم لأمـرٍ كـانَ بينـه وبينهـم ـ فقـال : يـا خـيرَ الملـوكِ ، أدلُّـكَ علـى عـدوٍّ يطلُبُهم ، وعلى عزّةِ بكر ؟

قال : نعم .

قال : أمهلْنا حتى نقيـظَ[1]، فـإنهم لـو قـد قـاظوا تساقطوا على ماء يقالُ له : ذو قـار تسـاقُطَ الفَـراشِ في النـار ، فـأخذتَهم كيـفَ شـئتَ ، وأنـا عنـدَك إلى أنْ أكفيكَهم ، ومعَ ذلـك فـإنَّ مُطـالبيهم في ذلـك الوقـتِ كثيرٌ ، وذلك مِمّا يُوهِنُ كيدَهم ، ويكـونُ أيسـرَ علـى الملكِ هلاكُهم .

فرضيَ كسرى بهذا الرأيِ وأقرَّه ..

---

[1] القيظُ : الحَرُّ ، يريدُ حتى يدخلَ فصلُ الصيفِ .

حتى إذا حلَّ فصلُ الصيفِ جاءتْ بكـرُ بـنُ وائـل فنزلتْ بالحِنوِ حِنوِ ذي قـار ، وهـي مـن ذي قـار على مسيرةِ ليلةٍ .

فأرسلَ كسرى النعمانَ بنَ زرعـةَ يُخيِّرُ بكـرَ بـنَ وائل في ثلاثِ خصالٍ ، فلمّا التقى بهانئِ بنِ قبيصةَ قال له : أنا رسولُ الملكِ إليكم أُخيِّرُكم ثلاثَ خصالٍ :

إمّا أنْ تُعطُوا بأيديكم فيحكمَ فيكم بما شاءَ .

وإمّا أنْ تُعَرُّوا الديارَ .

وإمّا أنْ تأذنوا بحربٍ .

استعدادُ العربِ للقتالِ

كـانتْ هنـدُ بنـتُ النعمـان في بـني سـنان ، فلمّـا علمتْ بمسيرِ جموعِ كسرى لاستئصالِ بكرِ بـنِ وائـل ، قالت تُنذِرُ العربَ :

ألا أبلغْ بني بكرٍ رسولاً فقد جدَّ النفيرُ بعنغقيرِ[1]

فليتَ الجيشَ كلَّهمُ فداكم ونفسي والسريرَ وذا السريرِ

كأنّي حينَ جدَّ بهم إليكمْ معلَّقةُ الذوائبِ بالعبورِ[2]

فلو أنّي أطقتُ لذاكَ دفعاً إذاً لدفعتُه بدمي وزيري[3]

وانتقلَ الخبرُ بينَ الناسِ حتى بلغَ بكرَ بنَ وائل ، فجمعهم هانئُ بنُ قبيصةَ ، ومضى بهم حتى انتهى إلى ذي قار فنزلَ به .

وأقبلَ النعمانُ بنُ زرعةَ حتى نزلَ على ابنِ أختهِ مُرَّة بنِ عمرٍو ، فقال لهم : إنكم أخوالي وأحدُ طرفيَّ ، وإنَّ الرائدَ لا يكذبُ أهلَه ، وقد أتاكم ما لا قِبَلَ لكم به من أحرارِ فارسَ وفرسان العرب ، والكتيبتان :

---

(1) العنغقير : الداهية .

(2) الذوائب : جدائل الشعر . والعبور : نجم في السماء يلي الجوزاء.

(3) الزير : ما استحكمَ فتلُه من الأوتارِ .

الشهباءُ والدَّوسَرُ[1]، وإنَّ في الشرِّ خياراً ولأنْ يفتدي بعضُكم بعضاً خيرٌ منْ أنْ تصطلموا[2]، انظروا هذه الحلفةَ فادفعوها ، وادفعوا رهناً من أبنائكم بما أحدَثَ سفهاؤكم .

فقال له القومُ : ننظرُ في أمرِنا .

رابعاً ـ وقائعُها :

جلسَ هانئُ بنُ قبيصةَ ومَنْ معه من بكرٍ ببطحاء ذي قار يرتقبونَ من يأتي من قبائلِ بكر ، فكانوا يقدمونَ عليهم جماعةً إثْرَ جماعةٍ ، حتى قدمتْ عليهم جماعةٌ فقالوا : سيدُنا في هذه ، فطلعَ عليهم رجلٌ أصلعُ

---

[1] الشهباء والدوسر : كتيبتان حربيتان كان كسرى قد وضعَهما تحت تصرُّفِ النعمان .

[2] تصطلموا : تُستأصلوا .

الشعرِ ، عظيمُ البطنِ ، مُشْرَبٌ حُمرةً ، فإذا هو حنظلةُ ابنُ ثعلبةَ بنِ سيارٍ العِجْلي ، فاستقبلوه فرحينَ ، وقالوا : يا أبا معدانَ ، قد طالَ انتظارُنا ، وقد كرهنا أنْ نقطعَ أمراً دونَك ، وهذا ابنُ أختِكَ قد جاءنا ، والرائدُ لا يكذبُ أهلَه ، وهذا هانئُ بنُ قبيصةَ يَهِمُّ بركوبِ الفلاةِ ، ويقولُ لنا : لا طاقةَ لكم بجموعِ الملك .

قال حنظلةُ : فما الذي أجمعَ عليه رأيكم ، واتّفقَ عليه ملؤُكم ؟

قالوا : إنَّ اللخى[1] أهونُ من الوهى ، وإنَّ في الشرِّ خياراً ، ولأنْ يفتدي بعضُنا بعضاً خيرٌ منْ أنْ نصطلمَ[2] جميعاً .

---

[1] اللخى : إعطاءُ المال ، المعنى : أنَّ فقدَ المالِ خيرٌ من الهلاك .

[2] نصطلم : نُستأصَل .

فقال حنظلةُ : قبَّحَ اللهُ هذا رأياً !! لا تجـرُّ أحـرارُ فارسَ أرجلَها ببطحاء ذي قار وأنا أسمعُ هذا الصوتَ .

ثم أمرَ بقبَّتِهِ فضُربـتْ بـوادي ذي قـار ، ثـم نـزلَ ونزلَ الناسُ معه ، واجتمعوا حولَه يسمعونَ ما يقـولُ ، فجعل ينظرُ فيهم ويتأمَّلُ وجوهَهم ثم قال : لا أرى غيرَ القتالِ ، فإنّا إنْ ركبنا الفلاةَ مِتْنـا عطشـاً ، وإنْ أعطينـا بأيدينا تُقتَلُ مقاتلتُنـا ، وتُسبى ذراريْنـا .. ثـم نظـرَ إلى هانئ بنِ قبيصةَ وقال مطمئناً : يا أبا أُمامة ، إنَّ ذمتَكـم ذمَّتُنا عامة ، وإنه لن يوصَلَ إليك حتى تفنى أرواحُنـا ، فأخرجْ هذه الحلقةَ ففرِّقْها بينَ قومِكَ ، فإنْ نظفـرْ فـتردُّ عليك ، وإنْ نَهلِكْ فالأسـلحةُ والـدروعُ أهـونُ مفقـودٍ بعدَنا وبعدَك .

وعند الطبري : فلمّا دنـتْ جيـوشُ الفـرسِ انسـلّ قيسُ بنُ مسعودٍ ليلاً فأتى هانئاً ، فقال له : أعطِ قومَك

سلاحَ النعمان فيقوَوا ، فإنْ هلكوا كان تبعاً لأنفسِهم ، وكنتَ قد أخذتَ بالحزمِ ، وإنْ ظفروا ردُّوه عليك .

ففعل وقسَّمَ الدروعَ والسلاحَ في ذوي القوى والجلدِ[1] من قومِهِ .

ثم نظرَ حنظلةُ إلى النعمان بنِ زرعةَ وقال له : لولا أنَّكَ رسولٌ لَمَا أُبْتَ[2] إلى قومكَ سالماً .

فرجعَ النعمانُ إلى أصحابهِ فأخبرَهم بما ردَّ عليه القومُ .

وأخذتِ الأمورُ تتأزَّمُ ، والشرُّ يتفاقمُ ، وأصبحَ القتالُ أمراً محتَّماً ، وباتَ العربُ متيقِّظين يرقُبونَ أعداءَهم ، ويرصُدونَ تحرُّكاتِهم لِيُثْبِتوا وجودَهم ، ويُبرهنوا على قدرتِهم في الدفاع عن أنفسِهم وبلادِهم ،

---

[1] ذوو الجلد : الأقوياء .

[2] آبَ : رجعَ .

وعدمِ التفريطِ بشبرٍ واحدٍ من أرضِهم ، أوِ الاستسلامِ لعدوِّهم ، أو الخضوعِ لأمرِهِ وغطرستِهِ ، فكانوا لا يَبيتونَ إلاّ والسلاحُ في أيديهم ، وهم مستعدُّونَ للردِّ على عدوِّهم إذا ما قامَ بمهاجمتِهم أو مباغتتِهم .

اجتماعُ مُمَثِّلي القبائل

بلغتْ أصداءُ زحفِ جموعِ الفُرْسِ واستعدادِهم لقتالِ بكرٍ والقضاء عليها بعضَ القبائلِ العربية ، التي أحسَّتْ بالشعورِ القوميّ ، ورابطةِ الدَّمِ واللغةِ والمصيرِ المشتركِ ، فتناسَتْ أحقادَها ، وتجاوزتْ خلافاتِها ، وطرحتْ عداواتِها ، ورأتْ أنْ توحِّدَ صفَّها ، وتجمعَ كلمتَها ، وتشحذَ قوتَها ، وتقفَ صفّاً واحداً أمامَ الخطرِ الفارسيِّ الذي جاءَ لا ليهدِّدَ القبائلَ البكريّةَ فحسب بل ليُهدِّدَ الوجودَ العربيَّ بأسرِهِ من مشرقِهِ إلى

مغربه ، ويستأصلَه ويقضي عليه قضاءً لا تقومُ له بعـدَه قائمةٌ .

ولربّما كانَ هـذا العـدوانُ الفارسـيُّ خـيراً لجميـعِ قبائلِ العربِ ، لأنه السببُ في اجتمـاعِهم بعـد تفـرُّقٍ ، وتآلُفِهم بعدَ تمزُّقٍ ، ولقائِهم بعـدَ تشـتُّتٍ ، وتوحيدِهـم بعدَ تفكُّك ، ولَمِّ شمْلِهم تحتَ قيادةٍ عربيةٍ موحَّدة .

وكانَ من أبرزِ الشخصياتِ العربيةِ يومئذٍ ، وخيرةِ الفرسان والقياديّينَ ثلاثةٌ وهم :

حنظلةُ بن ثعلبةَ العِجلـي ، وهـانئُ بـنُ قبيصـةَ بـنِ هانئِ بنِ مسعودٍ الشيبانيّ ، وبكرُ بـنُ يزيـدَ بـنِ مسـهرٍ الشيبانيّ، وإليهم يعودُ فضلُ توحيدِ الصَّفِّ، والتخطيـطِ السليمِ لقيـادةِ المعركـةِ الفاصلـةِ والمصيريـة ، ولا ننسى الدورَ البطوليَّ ، والإحساسَ بالشعورِ القوميِّ الذي أخذَ يتحرُّكُ في نفوسِ بعضِ الشخصياتِ القياديـةِ العربيـةِ في

الجيشِ الفارسي ، والنخوةَ الأبيّةَ التي سَرَتْ إليهم وهم يتولّونَ القيادةَ في جيشِ فارسَ ضدَّ إخوانِهم وبني جنسِهم من العربِ .

لقد رأى هؤلاء الفرسانُ أنَّ الواجبَ القوميَّ يُحتِّمُ عليهم أن ينضمُّوا إلى أبناء عمومتِهم من العرب ، ويقاتلوا إلى جانبِهم ضدَّ العدوّ المشترك .

فهذا قيسُ بنُ مسعودٍ الشيبانيُّ ـ وكان عاملَ كسرى على الأُبُلَّة[1] ينسلُّ في جوفِ الليلِ ، وتحت جنحِ الظلامِ ، فيأتي قومَه بني شيبانَ ويطلعُهم على أسرارِ جيشِ فارسَ ، ويشرحُ لهمُ الخطَّةَ الحربيةَ التي أعدُّوها لقتالِ يومِ غدٍ ، ولم يقفْ به الأمرُ هنا ، بل أخذَ يشجِّعُ القومَ ويثيرُ حماسَهم للقتال ، ويحثُّهم على

---

[1] الأُبُلَّة : بلدة على شاطئ دجلة .

الصبرِ والثباتِ في وجهِ المعتدينَ ، ثم رجعَ إلى موقفِـهِ في معسكرِ الجيشِ الفارسيّ دونَ أن يتنبَّهَ لأمرِهِ أحدٌ .

وكانتْ قبيلةُ إيادٍ العربية تقاتلُ تحتَ رايةِ فارسَ ، فأصابتْ رجالَها النخـوةُ والشـهامةُ العربيـة ، فاختـاروا منهم رجلاً جريئاً وأرسلوه تحت ظلامِ الليـلِ إلى القـادةِ العربِ من بكرِ بنِ وائل ليقولَ لهم : أيُّ الأمرين أحـبُّ إليكم يا بني بكـر ؟ أنْ تنفصـلَ الآنَ جمـوعُ إيـادٍ تحـتَ الليل فتُفارقَ معسـكرَ الفـرسِ ، أو أنْ تُقيـمَ وتبـادرَ إلى الفرارِ حينَ تُلاقونَ القومَ ؟

وأخـذَ القـادةُ البكريـونَ يدرسُـونَ الموقـفَ وقـد ارتفعـتْ معنويّـاتُهم القتاليـةُ حـينَ علمـوا أنَّ إخوانَهـمُ العربَ الذين هم تحتَ رايةِ فارسَ سوفَ يُقاتلونَ معهـم جموعَ الفرسِ ، وقدِ اطَّلعـوا أيضـاً علـى خِطَّـةِ عدوِّهـم فازداوا قوةً ومَنَعَةً ، وأصبحوا في شـوقٍ للقتال وخوضِ

المعركـةِ المصيريّـةِ ، بعـدَ أنْ وضعـوا خطــةً مفادُهــا أنْ تقومَ قبيلةُ إيادٍ بهزيمةٍ مدبَّرةٍ عنـدَ احتـدامِ القتـال ولقـاء الفرسان .

ومن حُسْنِ حظِّ البكريين أيضاً ، بل ومن دواعــي الفخـرِ والاعـتزازِ بالعاطفــةِ العربيــةِ ، أنَّ جماعــةً مــن الأسرى من قبيلـةِ تميـمٍ العربيـة ، وعددُهـم يقـرُبُ مـن مائتي أسيرٍ ، وكانوا أسرى عندَ بني بكـرٍ ، فلمّـا أحـسَّ هـؤلاء الأسـرى بـأنَّ حربـاً تُهـدِّدُ بـني بكــرٍ ، وأنهــم يستعدُّون لتلك الحربِ ، دفعتْهم شهامتُهم للاشـتراكِ في تلك الحربِ ، وقالوا : يا بـني بكـر ، خَلُّـوا عنّـا نقـاتلْ معكم .. ثم أرادوا أن يؤكِّدوا لهم أنهم لنْ يغدروا بهــم ولنْ يهربوا من الأسرِ لأنَّ مصيرَهـم مشتركٌ فقالوا : إنّما نُدافعُ بذلك عن أنفسِنا .

فردُّوا عليهم قائلينَ : ولكنّنا نخافُ ألاّ تُناصحونا ،

ونخشى أن تغدروا بنا .

فقال الأسرى التميميون : فدعونا نتخذُ علاماتٍ تدلُّ علينا عندَ اللقاء حتى ترَوا مكانَنا وصبرَنا وثباتَنا .

ووافقَ البكريون على اشتراكِ الأسرى معهم في القتال ، ونيلِ شرفِ الدفاعِ عن الوجودِ العربيّ ، والشرفِ العربي ، والنخوةِ العربيةِ .

وكان البكريونَ العربُ قد أعدُّوا كميناً خلفَ مواقعِ الجيوشِ الفارسيةِ ، وجعلوا قيادتَه ليزيدَ بنِ حمارٍ السكوني ، وهو الذي وضعَ خطةَ إعدادِ الكمين ، وذلك لتأمينِ الماء ومنعِ الفُرْسِ من الانتفاعِ به ، لأنَّ الماءَ في ذلك الوقتِ هو المادةُ الفعّالةُ في تزويدِ المقاتلين ، ودفْعِ حرِّ القيظِ ، وشدّةِ الظمأِ ، ورفعِ روحِهمُ المعنويةِ خاصةً وأنَّ الفصلَ صيفٌ والطقسَ حارٌّ ، والإنسانُ أحوجُ ما يكونُ للماء في ذلك الوقتِ .

إثارةُ حماسِ المقاتلين

في صبيحةِ اليوم التالي للاجتماعِ وقفتِ القبائلُ العربيةُ وقد رفعتْ راياتِها ، ووقفَ كلُّ زعيمٍ من زعمائِها أمامَ قبيلتِهِ ، ووقفتِ النساءُ خلفَ الرجالِ على هوادجِهنَّ يُثِرْنَ حماسَهم ، ويُلْهِبْنَ مشاعرَهم ، ويُشجِّعْنَهم على الثباتِ في وجهِ العدوّ ، والدفاعِ عن العِرْضِ والأرضِ ، والذّودِ عن الحِمى والشرفِ والأهلِ .

وتقدَّمَ حنظلةُ العِجليُّ ليقدِّمَ مثَلاً رائعاً في البطولةِ والتضحيةِ والفداءِ ، فأمرَ أن تُضرَبَ له خيمةٌ ، وأقسمَ أنْ لا يُغادرَ مكانَه حتى تطيرَ الخيمةُ ، ثم قامَ إلى رواحلِ نسائِهِ فقطعَ الوُضُنَ[1]، فجعلتِ النساءُ يتساقطْنَ

---

[1] الوُضُن : أحزمةُ الرواحل .

على الأرضِ من فوقِ هوادجهنَّ ، وأخذَ يُلْهِبُ حماسَ الرجالِ ويقولُ : (أيُّها القومُ ، لِيُقاتلْ كلٌّ منكم عن حليلتِهِ[1] حتى الموتِ ، وأنا في مقدّمتِكم) .

فجعلَ الرجالُ والفرسانُ يقطعونَ وُضُنَ هوادِجِ النساء ويَحْذُونَ حَذْوَه ، وقد سَرَتْ في نفوسِهِمْ روحُ العزّةِ والكرامةِ ، وامتلأتْ قلوبُهم بالنخوةِ والشهامة وأقسموا أنْ يُدافعوا عن نسائِهم وأعراضِهم ، ولا يفرُّوا من أرضِ المعركةِ ، أو يكشفوها لعدوِّهم فتكونَ النساءُ لقمةً سائغةً يسهُلُ أسرُهُنَّ واختطافُهنَّ .. وهذا أصعبُ ما يُصابُ به العربيُّ أنْ يرى نساءَه يُسبَينَ أمامَه ، لذلك ازدادَ الرجالُ نخوةً وحماسةً ، وصمّموا على مضاعفةِ الجهدِ ، والدفاعِ عن العِرْضِ حتى النصرِ أو الموتِ .

---

[1] حليلةُ الرجل : زوجتُه .

وهذا هانئُ بنُ قبيصةَ الشيباني يقول : (يا قــومُ ، مهلـكٌ مقـدورٌ خـيرٌ مـن نجـاء معـرورٍ[1]، وإنَّ الحــذَرَ لا يدفعُ القدَرَ ، وإنَّ الصــبرَ مـن أسـبابِ الظفـرِ ، المنيّـةَ ولا الدنيّـةَ ، واسـتقبالُ المـوتِ خــيرٌ مــن اسـتدبارِه ، والطعنُ في الثغرِ[2] أكرمُ من الطعنِ في الدُّبُرِ[3]...

يا قومُ ، جِدُّوا فما من الموتِ بُدٌّ ، فتحٌ لو كانَ لـه رجالٌ ، أسمعُ صوتاً ولا أرى قوماً ، ويا آلَ بكـرٍ شُـدُّوا واستعدُّوا ، وإلاّ تشدُّوا تُرَدُّوا) .

وقـام شـريكُ بـنُ عمـرِو بــنِ شــراحيلَ فقــال : (يا قومُ ، إنَّما تهابونَهم أنَّكم ترَونَهـم عنـدَ الحِفـاظِ[4]

---

[1] معرور : مُعاب .

[2] الثغر : الوجه .

[3] الدبر : القفا .

[4] الحفاظ : القتال .

أكثرَ منكم ، وكذلك أنتم في أعينِهم ، فعليكم بالصبرِ ، فإنَّ الأسنّةَ[1] تُردي الأعنّةَ[2]، يا آلَ بكرٍ ، قدْماً قُدْماً).

وقامَ حنظلةُ بنُ ثعلبةَ مرَّةً أخرى فقال :

قد جدَّ أشياعُكم فجدُّوا ما علّتي وانا مؤدٌ جَلْدُ[3]

والقوسُ فيها وترٌ عُرُدُّ مثلُ ذراعِ البِكرِ أو أشدُّ[4]

قد جعلتْ أخبارُ قومي تبدو إنَّ المنايا ليس منها بدُّ

هذا عميرٌ تحته ألَدُّ يقدُمُه ليس له مردُّ

حتى يعودَ كالكُميتِ الوردُ خلُّوا بني شيبانَ فاستبدُّوا

نفسي فداكم وأبي والجَدُّ

وقامَ ابنُه يزيدُ بنُ حنظلةَ بنِ ثعلبةَ فقال :

---

(1) الأسنّة : الرماح .

(2) الأعنّة : جمع عِنان ، وهو لجامُ الفرَس .

(3) مؤدٌ : ذو أداةٍ من السلاحِ تامّة ، يريدُ أنه لا عذرَ له .

(4) عردّ : شديد . والبِكر : الناقة .

مَنْ فرَّ منكم فرَّ عن حريـمِـهِ   وجـارِهِ وفـرَّ عـن نـديـمـــهِ
أنا ابن سيّـارٍ على شـكيمِــهِ   إن الشـراكَ قُدَّ من أديـمِـهِ[1]
وكلُّهم يـجري على قـديـمِـهِ   من قارحِ الهُجنةِ أو صميمِهِ[2]

وقال عمرُو بنُ جبلةَ اليشكري :

يا قومُ لا تَغررْكمُ هذي الخِرقْ   ولا وميضُ البِيضِ في الشمسِ برَقْ
من لم يقاتلْ منكمُ هذا العَنَـقْ   فجنِّبوهُ الراحَ واسقُوه الـمـرَقْ[3]

هذا ... وكانتِ النساءُ قد وقفنَ خلفَ الرجـالِ ، وقد برزْنَ من هوادِجهنَّ وأخذنَ يُشجِّعنَ الرجـالَ على الصبرِ والثباتِ ، والدفاعِ عن الأهلِ والعِـرْضِ ، فقـالتِ امرأةٌ منهنّ :

---

[1] الشراك : سيرُ النعلِ . قُدَّ : قُطِع . الأديم : الجلد المدبوغ .
[2] القارح : الحصان . الهجين : المولود من جنسين .
[3] العنق : الجماعة .

إنْ تَهزِموا نُعانقْ ونفرشُ النمارقْ[1]
أو تُهزَموا نُفارقْ فراقَ غيرِ وامقْ[2]

بدءُ القتال

ودَنَتْ ساعةُ الصِّفْر ، واصطفَّ الجيشان ، وقد تقدَّمَ جيشَ الفرسِ بعضُ الفيلةِ على عادةِ الفرسِ ، لأنَّ من شأنِ الفيلةِ إخافةَ الخيولِ ، وكانَ عندَ بني شيبانَ رجلٌ يقالُ له : ربيعةُ بنُ غزالةَ السكوني ومعه قومُه ، فقال : يا بني شيبانَ أما إني لو كنتُ منكم لأشرتُ عليكم برأيٍ مثلِ عروةِ العلم .[3]

فقالوا : أنتَ والله مِنْ أوسطِنا فأشرْ علينا .

---

[1] النمارق : الوسائد .

[2] الوامق : المحبّ .

[3] عروةُ العلم : هو العلم الذي يوثَقُ به .

فقــال : لا تستهدفوا لهــذه الأعــاجم فتهلككــم بنُشابِها[1]، ولكــنْ تكردسـوا[2] كراديسَ ، فـإذا أقبلـوا على كردَوسٍ شدَّ الآخرُ .

فقالوا : قد رأيتَ رأياً .

ولَمّا دنا الفريقان قامَ حنظلةُ بنُ ثعلبـةَ فقـال : إن النشابَ الذي مـع الأعـاجمِ يفرِّقُكـم ، فـإذا أرسـلوه لم يُخطِئْكُم ، فعاجلوهم اللقاءَ ، وابدؤوهم بالشدة .

وكانَ حنظلةُ بنُ ثعلبةَ على الميمنةِ يقودُ بني عجـل بـإزاء جنـابزين ، وبنـو شيبانَ في الميسـرةِ بـإزاء كتيبـةِ الهامرز وعليهم بكرُ بنُ يزيدَ بنِ مسهّر ، وأفناءُ بكـرٍ في القلبِ وعليهم هانئُ بنُ قبيصةَ .

وتقدَّمَ فرســانُ العربِ من فرسانِ الفرسِ المدعَّمين

---

[1] النشابُ : النبل .

[2] الكردوس : الكتيبةُ من الجيش .

بالفيلةِ وبأحدثِ ما عرفتِ الدُّنيا يومئذٍ من قوةٍ وسلاحٍ ، ولكنَّ سلاحَ الحقِّ والدفاعِ عن النفسِ ، والإيمان بالقضيةِ العادلةِ التي خرجَ من أجلها فرسانُ العربِ كانت أقوى من سلاحِ الفرس وأشدَّ فتكاً وأكثرَ فاعليةً ، ولعلَّ المشهدَ التالي يُعطينا صورةً صادقةً للموقفِ ، ويترجمُ لنا القولَ إلى عملٍ .

في هذه اللحظاتِ الحاسمةِ خرجَ من وسطِ جيوشِ الفرسِ ، ومن كتيبةِ الهامرز فارسٌ في أذنيه دُرَّتان يتحدّى الناسَ ، ويطلبُ المبارزةَ ويقولُ : مَرْد ومَرْد .

فكأنَّ القومَ لم يفهموا ما يريدُ .

ثم ضربَ فرسَهُ في وسطِ الميدان ، وراح يصولُ ويجولُ ، وينادي بالفارسيّة : مَرْد ومَرْد .

فقامَ يزيدُ بنُ حارثةَ اليشكريُّ فقال : ما يريدُ هذا الفارسُ .. وماذا يقول ؟!

فأجابهُ بعضُهم : إنـه يدعـو إلى البِرازِ ، ويقـول : رجلٌ لرجلٍ .

فقال يزيدُ : وأبيكم لقد أنصفَ .

ثمَّ اندفعَ نحوَه كالسهمِ ، وساوره[1] لحظـةً ، ثـم شدَّ عليه بالرمحِ فأصابَهُ ودقَّ صلبَه ، وجندلَه على الأرضِ صريعاً ليسَ فيه حركةٌ ولا نفَسٌ ، ثـم انقضَّ عليه وجلسَ على صدرِه وأخذَ حُليَّهُ وسلاحَه ، وعادَ إلى مكانِهِ في صفوفِ قبيلتِهِ (يشكر) وقد ملأ العيونَ إعجاباً والقلوبَ فرحاً وغبطةً وسروراً .

في حين أُصيبَ الفرسُ بالذهولِ وخيبةِ الأملِ لِمَا رَأَوْا من اللحظاتِ الأولى للمعركةِ مصرعَ واحدٍ من فرسانِهم ، الأمرُ الذي جعلَ قائدَ ميمنتِهم الهامرزَ يثورُ

[1] ساوره : واثبه .

ويغضبُ ، ويبرزُ إلى ميدان المعركةِ ويقولُ : مَرْد ومَرْد .. فبرزَ له يزيدُ بنُ حارثةَ اليشكريُّ الذي أقبلَ نحوَه وجعلَ يُساورُه ويناجزُه ليتمكَّنَ منه بضربةٍ كانتِ القاضيةَ .

فكانَ هذا المشهدُ البطوليُّ الرائعُ بدايةَ نصرٍ ، وفاتحةَ خيرٍ للعربِ الذينَ ارتفعتْ معنوياتُهمُ القتاليةُ ، وأصبحَ كلُّ فردٍ منهم كأنَّه جيشٌ مظفَّرٌ منتصرٌ ، في حين خارَتْ قوى الفرسِ ، وأحسُّوا بالضعفِ والخَوَرِ ، وأُصيبوا بالوهنِ والخسرانِ ..

وقيلَ : إنَّ الذي برزَ للهامرزِ وقتلَه الحارثُ بنُ شريك .

وانطلقتْ صيحاتُ العربِ هنا وهناك ، وارتفعتْ زغاريدُ النساء يُشجِّعْنَ الرجالَ ، ويُثِرْنَ فيهمُ الحماسَ ، وأعادَ قائدُهم حنظلةُ بنُ ثعلبةَ وصيَّتَه لقومِهِ وقال :

يا آلَ بكرٍ ، لا تقفوا لعدوِّكـم حتـى يُمْطِرَكـم بنبالِـهِ ، ويمزِّقَ جمعَكم بنُشَّابهِ ، واحملوا على جموعِهِ حملةً واحدةً صادقـةً ، وكُـرُّوا علـى الأسـاورةِ وأبيدوهـم برمـاحِكم وسيوفِكم .

فاندفعَ الأبطالُ بكلِّ شجاعةٍ واستبسالٍ ، وأخـذوا يُنزلونَ بالفُرْسِ كلَّ بأسٍ وشدّةٍ ، والتقى الجيشـان لأوَّلِ مرَّةٍ في تـاريخِ العـربِ والفـرْسِ ، وحملـتْ ميسـرةُ بكـرٍ بقيادة حنظلـةَ العجلـي علـى ميمنـةِ الفـرسِ ، وكذلـك ميمنةُ بكرٍ على ميسرةِ الفرسِ الذين خارتْ قواهم بمقتلِ فارسَيْن كبـيرينِ مـن فرسـانِهم ، والتحـمَ قلـبُ الجيـشِ العربي بقلبِ الجيشِ الفارسيّ وسـطَ هتافـاتِ وزغـاريدِ النساء العربياتِ اللواتي جعلنَ مـن كـلِّ فارسـيّ عربـي جيشاً لَجباً قوياً .

وفي وسطِ المعمعةِ، والمعركةُ قويةٌ ضاريـةٌ، ووسْطَ

صيحاتِ الفرسان ، فُوجِئَ فرسانُ الفرسِ بالكمين البكريّ الذي دُبِّرَ أمرُه ليلاً بقيادةِ يزيدَ السكوني الذي شدَّ بفرسانهِ على جيشِ الفرسِ شدَّةَ رجلٍ واحدٍ ، وجعلوهم في الوسط وأخذوا يضربونَهم بسيوفِهمُ الظامئةِ ، حتى جعلوهم حيارى من أمرِهم لا يَدْرونَ من أينَ يأتيهمُ الضربُ وكيف يخرجُ عليهم فرسانُ العربِ ويذهلونَهم ويفاجئونَهم بما لم يكونوا له يحتسبون ، والذي أطارَ صوابَهم مقتلُ جنابزين قائدِ ميسرتهِم ، الذي قتله حنظلةُ العجلي أثناءَ التحامِ الفرسان والتقاء الفريقين .

هذا والمعركةُ على أشُدِّها ، وقدِ ارتفعتْ حرارةُ النهارِ وكانَ شديدَ القيظ ، واحتاجَ مقاتلو الفرسِ إلى الماء ، فلم يستطيعوا الوصولَ إليه بسببِ الحِصارِ المحكَمِ الذي فرضَه البكريون حولَ الماء ليحُولَ دونَ وصولِ

الفـرسِ الذيـن اشـتدَّ بهـمُ العطـشُ ، فخـارتْ قُواهـم ، وانحطَّـتْ معنويـاتُهم ، وطاشَـتْ عقولُهـم ، وضَعُفَـتْ شوكتُهم ، ثم اكتملَ ضعفُهم حين رأوا قبيلةَ إيادٍ تنفِّـذُ الخِطَّةَ المتفقَ عليها ، وهي الهزيمـةُ المدبَّـرةُ ، فيئسـوا مـن النجاة ، وأخذوا يبحثونَ عن سبيلٍ للهربِ فـلا يجـدونَ سـوى الرمـاحِ تخـترقُ صدورَهـم ، والسـيوفِ تـدقُّ أعناقَهم ، والمنايا تنوشُهم ، والموتُ يتلقّاهم .

ولم يكَدِ النهارُ ينتصفُ حتى أُصيبَ الفرسُ بهزيمـةٍ منكَرةٍ لم يُصابوا بمثلِها مـن قبـلُ ، حتـى مـع أكـبرِ قـوةٍ توازيها.. وانطلقَ العربُ البكريّون في إثْرِهم يُطاردونَهم ويقتلونَهم إلى الليل ولا ينظرونَ إلى الغنائمِ والأسلابِ ، لا ينظرونَ إلاّ إلى القضاء على غطرسةِ الفرسِ وتـأديبِهم وكسرِ شوكتِهم ، وتلقينِهم درساً بـالغَ القسـوةِ والقـوةِ والعنفِ .

هذا .. ولم يزلِ العربُ البكريّونَ يلاحقــونَ فُلـولَ الفرسِ حتى بلغوا السَّواد من أرضِ العراق ، والبكريّـونَ خلفَهم يُنزِلونَ بهمُ الضرَباتِ القاسيةَ حتى صباحِ اليـومِ التالي ، الذي أسفرَ عــن نصرٍ عربـيّ مـؤزَّرٍ يدعـو إلى الفخرِ والاعتزاز ، وعـن هزيمـةٍ فارسـيّةٍ منكَـرةٍ متوَّجـةٍ بالخزيِ والعارِ ، وقاضيةٍ علـى الغطرسـةِ الفارسـيةِ الـتي كـانتْ تنظــرُ إلى العــربِ نظـرةَ اسـتصغارٍ واحتقــارٍ وضعفٍ .

ويالَه من درسٍ فيه العظةُ والعِبرةُ ..!!

خامساً ـ نتائجُها :

أسفرتِ المعركةُ في يومِ ذي قار عن نتـائجَ مذهلـةٍ أذهلـتِ البكريـين أنفسَـهم وأفقـدتِ النـاسَ صوابَهــم ، وجعلتْهم حيارى من أمرِهم وباؤوا بفشلٍ ذريعٍ وهزيمـةٍ

منكَرةٍ بعدَ أنْ فقدوا خيرةَ فرسانِهم منذ اللحظاتِ الأولى للمعركةِ ، ومن اللقاء الأول .

وما إن انتصفَ النهارُ حتى جدُّوا في الهربِ طالبينَ النجاةَ ، فقُتلَ منهم مقتلةٌ عظيمةٌ وأُسِرَ عددٌ كبيرٌ ، وكان من جملةِ الأسرى النعمانُ بنُ زرعةَ الذي كانَ حريصاً على القضاء على بني بكرٍ ، ولعبَ دوراً كبيراً بإقناعِ كسرى بضرورةِ توجيهِ جيشٍ كبيرٍ لتأديبِ العربِ الذين خرجوا عن طاعتِهِ وتمرَّدوا عليه .

وها هو ذا ينالُ عقابَهُ العادلَ جزاءَ خيانتِهِ وتآمره مع الأجنبيّ على استئصالِ قومِهِ ، لقد رأى الدائرةَ تدورُ عليه ، ومكرَه يحيقُ به ، فاشتدَّ هارباً وللنجاةِ طالباً ، فتبعَهُ مَرثدُ بنُ الحارثِ فأهوى له طعناً ، فسبقه النعمانُ بصدرِ فرَسِهِ فأفلتَ منه ، وفي ذلك يقول مرثدُ :

وخيلٌ تبارى للطعان شهدتُها فأغرقتُ فيها الرمحَ والجمعُ محجمُ

وأفلتَنـي النعمـانُ فـوتَ رماحِنا   وفوقَ قـطـاةِ الـمهرِ أزرقُ لهذمُ[1]

ولكـنَّ أسـودَ بـنَ بجـيرٍ العجلـي تبعـه وتمكَّـنَ مـن أسرِهِ ، وأصبحَ النعمانُ بين يديِ الأسودِ ذليلاً صـاغراً ، وقد حاقَ به مكرُه ، وذاقَ وبالَ أمرِه ، وجزاءَ خيانتِهِ ، ولكنَّ آسرَه تحرَّكتْ في نفسِهِ عاطفةُ القربى نحـوَه فجـزَّ ناصيتَه وأطلقَ سراحَه ، وبذلك يظلُّ النعمانُ بـنُ زرعـةَ مستعبَداً ذليلاً لآسرِه على ما كانتْ عليه عادةُ العربِ ، قال شاعرُهم :

كم من أسيرٍ فكَكْناه بلا ثَمَنٍ   وجـزِّ ناصيـةٍ كنّا مواليهـا

أمّا ما كانَ من أمرِ إياسِ بـنِ قبيصـةَ الـذي جعلـه كسرى ملكاً على الحِيرةِ بعدَ النعمان بنِ المنذرِ ، وعيَّنَـه قائداً أعلى لجيشِهِ في حربِهِ ضدَّ إخوانِهِ وبني عمومتِهِ من

---

[1] القطاةُ : موضع الردف من الدابة . اللهذم : كلُّ شيءٍ قاطعٍ مـن سيفٍ أو رمحٍ .

العربِ ، فلمّا رأى كفّةَ الحربِ مائلةً من الدقـائقِ الأولى لصالحِ العربِ ، وأنَّ دائرةَ السَّوءِ ستدورُ عليه وسيقطفُ هو ثمراتِها المرَّةَ ، لاذَ بالفرار ، وكانَ أوّلَ مـن انصـرفَ إلى كسرى بالهزيمةِ ، وكانَ كسـرى لا يأتيـهِ أحـدٌ بنبـأِ هزيمةِ جيشٍ إلاّ عاقبَه بنزعِ كتفيهِ ، فلمّا قدمَ عليه إيـاسٌ سألَه عن أنباءِ القتالِ ، فكذبَ عليـه وقـال لـه : هزمْنـا بكرَ بنَ وائل ، فأتيناك بنسائِهم .

ففرحَ كسرى بهذا النبأِ ، وأمرَ له بعطاء وكساء .

ثم أرادَ إيـاسُ بـنُ قبيصـةَ أنْ يهـربَ مـن كسـرى لينجوَ بنفسِهِ ، فاستأذنَه بزيارةِ أخيه ، واختلـقَ أُكذوبـةً فقال للملك : إنَّ أخـي قيـسَ بـنَ قبيصـةَ مريـضٌ بعيـنِ التمر[1]، فأردتُ أنْ آتيَه .

---

[1] عينُ التمر : بلدةٌ قريبةٌ من الأنبار غربي موضع الكوفة .

فأذِنَ له كسرى ، فركبَ فرسَه ولحقَ بأخيه .

ثم قدِمَ على كسرى رجلٌ من أهلِ الحِيرةِ فسألَ : هل دخلَ على الملكِ أحدٌ ؟

فقيلَ : نعم ، إياسُ بنُ قبيصةَ .

فقال : ثكلتْ إياساً أمُّه .. وظنَّ أنه أخبرَ كسرى بحقيقةِ أنباء المعركةِ ، فدخلَ عليه وحدَّثَه بالهزيمةِ المنكَرةِ التي لحقَتْ بهم ، وبمقتلِ خِيرةِ رجالِهم وفرسانِهم ، فغضبَ كسرى وأمرَ به فنُزِعتْ كتفاهُ ... ومن يدري ماذا كانَ يفعلُ بإياسٍ إنْ أدركَه وألقى عليه القبضَ ؟!

ولعلَّ من أهمِّ نتائجِ معركةِ ذي قار خروجَ العربِ منها منتصرين وقد برهنوا على شجاعتِهم واجتماعِهم بعدَ التفرُّق ، وتجاوُزِ الأحقادِ والخلافات ، واجتماعِ الكلمةِ ، وتوحيدِ الصفِّ ، للوقوفِ في وجهِ العدوّ المتغطرسِ ، وكسرِ شوكتِهِ ، وردِّ سهمِهِ إلى نحرِه ،

وتلقينِهِ درساً بالغَ القسوةِ ، وتعليمِهِ أنَّ الإنسانَ العربـيَّ أَبـيٌّ كريـمٌ شـهمٌ ذو نَجـدةٍ ومـروءةٍ ، يـأبى الضيـمَ ، ويرفـضُ الـذُّلَّ ، ويثـورُ علـى الاسـتغلالِ والاسـتعبادِ ، ويكونُ عوناً لأخيهِ العربيِ ولو كانَ في أقصى الأرضِ .

لقد كانَ النصرُ العربـيُّ في ذي قـار نتيجـةً طبيعيـةً لالتقاء الشعورِ القومـيّ وصحـوةِ الضمـيرِ العربـيّ بعـدَ سُباتٍ عميقٍ ، ومقدمةً للوحدةِ العربيةِ الشاملةِ إنْ كُتِبَ لها أنْ تجتمعَ وتتوحَّدَ .

لقـد برهـنَ العـربُ عـن قدراتِهـمُ الكامنـةِ ، وإمكاناتِهمُ العظيمةِ ، وأثبتـوا للدنيـا بأسـرِها أنَّهـم أمـةٌ قادرةٌ على إثباتِ وجودِها ، والدفاعِ عن ذاتِها ، وأنهـا تستطيعُ أن تتبوَّأَ أعلى المناصبِ وأرفعَها ، وتتسلَّمَ قيـادةَ الدنيا بأسرِها .

ولعلَّ أكبرَ دليلٍ على ذلك حين دخلوا الإسـلام ،

وبـايعوا نبيَّهـمُ العربـيَّ ﷺ ، واجتمعـوا عليـه ، والتفُّـوا حولَه ، ووضعوا مسـتقبلَهم ووجودَهـم ومصـيرَهم بـين يديه ، فجعلَ منهم أمةً قويةً ذاتَ مكانـةٍ وسيادةٍ ، بـل وفي طليعةِ الأممِ جميعاً .

ومن نتائجِ المعركةِ : أنَّهـا أسـفرتْ عـن القـدراتِ العربيةِ الكامنةِ التي سرعانَ ما تفجَّرتْ ، وكشفتْ عـن مواهـبَ عظيمـةٍ استطاعتْ أن تُخطِّـطَ لمعركـةٍ سـريعةٍ وخاطفةٍ ، ويتمثَّلُ ذلك في ثباتِ القـائدِ العربـيِّ الذكـيِّ الماهرِ حنظلةَ بنِ ثعلبة العجلي الذي يُـدرِكُ قـوةَ الفرسِ وبأسَهم وكثرةَ عددِهم ، ويعلمُ أنَّ المعركةَ غيرُ متكافئـةٍ بين الطرفينِ ، خاصّةً وأنَّ أساورةَ الفرسِ مـاهرونَ جـدّاً في رميِ النبـالِ ، فـرأى أن يُجَنِّـبَ قومَـه هـذا الخطـرَ ، وأنْ يُعِدَّ خطّةً حربيةً لقتالٍ سريعٍ وخاطفٍ ، فأمرَ قومَـه أنْ يقوموا بهجومٍ سـريـعٍ ليختلطوا مـع جنـودِ الفرسِ ،

فلا يستطيعُ أساورتُهم استخدامَ النُّشابِ خوفاً من أنْ يُصيبوا جنودَهم ، فوجدوا أنفسَهم مضطرينَ إلى إلقاء أقواسِهم ونبالِهم واستعمالِ السيوفِ والرماحِ التي لا يستطيعون بها مواجهةَ العربِ المتمرِّسينَ بفنِّ استخدامِها وقدرتِهم عى التفوُّقِ بها على أعدائِهم مهما يكنْ بأسُهم قوياً وجمعُهم كثيراً ، وهذا ما حدثَ فعلاً ..

ومن نتائجِ المعركة : أنَّ العربَ حطَّموا أُسطورةَ الفُرْسِ ، وأبطلوا مقولةَ : (إنَّ للفرسِ جيشاً قوياً لا يُقهَرُ) ، وأنّهم قادرونَ على ردِّ العدوان وسحقِهِ وردعِهِ والانتصارِ عليه ، والمحافظةِ على كرامتِهم التي استهترَ بها الفرسُ ولم يُبالوا بها ، واعتبروها معدومةً حينَ رأَوا تفرُّقَ القبائلِ العربيةِ وتناحرَها .

وبالجملةِ فقد كانتْ نتيجةُ المعركةِ مشرِّفةً ،

ومفخرةً للعربِ عبرَ التاريخِ الطويلِ ، لقد كـانَ العـربُ أنفسُهم يحسبونَ لهذه المعركةِ حسابَها ، ويُدرِكونَ أنهـا غيرُ متكافئةٍ ، حتى لقدْ قال بعضُهم : هلَكَتْ عِجْـلٌ .. ولكنَّ عجلاً ومَنْ معها من القبائلِ العربيةِ ظلَّتْ صامدةً تتحدَّى الموتَ والأهوالَ ، ولبثتْ شامخةً تُدافعُ عن أمنِها ووجودِها، ومحافظةً على كرامتِها وشخصيَّتِها وهُويَّتِهـا، وراحتْ تستهينُ بكسرى وجبروتهِ وأساورتهِ ...

وهذا الشـاعرُ العربـيُّ الأعشـى ميمـونُ بـنُ قيـسٍ يسخرُ من كسرى ويقول :

مَنْ مُبلِغٌ كسرى إذا ما جاءه — عنـي مآلكَ مـخـمسـاتٍ شُـرَّدا

آليتُ لا نُعطيـهِ مـن أبنـائنـا — رُهْناً فيفسدَهم كَمَنْ قد أفسدا[1]

---

[1] آليتُ : أقسمتُ . والرُّهْنُ : الرهائن الـتي طلبهـا كسـرى ضمـنَ شروطهِ المتقدّمة .

فـاقـعـدْ عليك التـاجُ معتصباً به   لا تطلبـنَّ سـوامَنـا فـتُعبَّـدا[1]

فلعمْرُ جـدِّك لو رأيتَ مقـامَنـا   لرأيتَ مـنّـا مـنـظـراً ومـؤيَّـــدا

في عـارضٍ من وائلٍ إنْ تـلـقَـهُ   يومَ الهياجِ يكنْ مسيرُك أنكدا[2]

وترى الجيادَ الُجرْدَ حولَ بيوتِنا   موقوفةً وترى الوشيجَ مسنَّـدا[3]

---

[1] السوم : الذّل والاستعباد .

[2] العارض : هو في الحقيقة السحاب ، قـال تعـالى : ﴿ **فلمّـا رأوهُ عارضاً مستقبلَ أوديتِهم قالوا هذا عارضٌ ممطِرُنـا** ﴾ ، فالضمـيرُ في قوله تعالى : ﴿ **رأوه** ﴾ يعودُ على السحاب .

وهنـا يشـبِّهُ الشـاعرُ جيـشَ البكريـين بالسـحابِ المـتراكم ، والهيـاج : المعركـة ، يريـد : إنْ تلـقَ هـذا الجيـشَ يـومَ المعركـةِ يكنْ خروجُك إلى لقائهِ شؤماً ونكـالاً ، لأنـه سـوفَ يلقِّنـكَ درسـاً لنْ تنساه .

[3] الوشيج : الرماح ، يريد أنها مسندةٌ استعداداً للمعركة .

ما قيلَ من الشعرِ في يوم ذي قار

انتهتِ المعركةُ الحاسمةُ بنصر عربيّ حاسمٍ ، ووجدَ الشعراءُ في هذه المناسبةِ مادةً خصبةً ، وميداناً فسيحاً للتعبيرِ عمَّا يجيشُ في خواطرِهم ، وإظهارِ ما في نفوسِهم من فرحةٍ غامرةٍ وسعادةٍ كاملةٍ .

فأخذوا يصوغونَ الشعرَ ، ويصِفُونَ النصرَ ، ويتغنَّونَ بالمآثرِ والبطولاتِ ، فأتَوا بكلِّ رائعٍ وبديعٍ .. وفي ذلك يقول الأعشى ميمونُ بنُ قيسٍ مفتخراً :

منا غطاريفُ ترجو الموتَ وانصرفوا[1] وجندُ كسرى غداةَ الحِنْوِ صبَّحَهم

للموتِ لا عاجزٌ فيها ولا خَرِفُ[2] لقوا ململمةً شهباءَ يقدمُها

---

[1] الغطاريفُ : جمع غطريف ، وهو السيد ، وقيل : الفتى الجميل .

[2] ململمة : هي الكتيبةُ المجتمعة . والخَرِف : الرجلُ الذي فسدَ عقلُه من الكِبَر .

فَرْعٌ نَمَتْهُ فروعٌ غيرُ ناقصةٍ موفَّقٌ حازمٌ في أمره أنفُ[1]
فيها فوارسُ محمودٌ لقاؤُهُمُ مثلُ الأسنّةِ لا مِيلٌ ولا كُشُفُ[2]
بيضُ الوجوهِ غداةَ الروعِ تحسبُهم جُنّانَ عينٍ عليها البيضُ والزَّغَفُ[3]
لَمّا رأونا كشفنا عن جماجِمنا ليعلموا أنّنا بكرٌ فينصرفوا
قالوا البقيةَ والهنديُّ يحصِدُهم ولا بقيةَ إلاّ السيفُ فانكشفوا[4]
لو أنَّ كلَّ معدٍ كانَ شاركَنا في يوم ذي قار ما أخطاهمُ الشرفُ
لَمّا أتونا كأنَّ الليلَ يقدمُهم مطبقُ الأرضِ تغشاها بهم سُدَفُ
بطارقٌ وبنو مُلْكٍ مَرَازبةٌ من الأعاجمِ في آذانِها النُّطَفُ[5]
من كلِّ مرجانةٍ في البحرِ أحرزَها تيارها ووقاها طينَها الصّدَفُ
وظعنُنا خلفَنا تجري مدامعُها أكبادُها وجلاً مما ترى تجِفُ[6]

---

[1] أنف : الجمل الذلول الذي يأنف من الزجر .

[2] الكشُف : جمع أكشف ، وهو الذي لا ترسَ معه .

[3] جنّان : جمع جانّ من الجنّ . والزَّغَف : الدروع .

[4] البقيّة : أي أبقوا علينا ولا تستأصلونا .

[5] النطفُ : الأقراط .

[6] تجفُ : تضطربُ .

كأنّـما الآلُ في حافاتِ جمعِهمُ والبيضُ برقٌ بدا في عارضٍ يكِفُ

يحسرْنَ عن أوجهٍ قد عاينتْ عِبراً ولاحها عَبرةٌ ألوانُها كِسَفُ[1]

ما في الخدودِ صدورٌ عن وجوهِهمُ ولا عنِ الطعنِ في اللبات منحرَفُ

لَمّا أمالوا إلى النُشّابِ أيديَهم مِلْنا ببيضٍ فظلَّ الهامُ يُقتَطَفُ

وخيلُ بكرٍ فما تنفكُّ تطحنُهم حتى تولّوا وكادَ اليومُ ينتصفُ

وقال يمدحُ بني شيبانَ :

فِدًى لبني ذهلِ بنِ شيبانَ ناقتي وراكبُها يومَ اللقاء وقَلَّتِ

كفَوْا إذ أتى الهامرزُ تخفقُ فوقَه كظلِّ العُقابِ إذ هَوَتْ فتدلّتِ[2]

أذاقوهمُ كأساً من الموتِ مُرَّةً وقد بَذَّخَتْ فرسانُهم وأذلّتِ[3]

فصبَّحَهم بالحِنْوِ حِنوِ قُراقرٍ مقدمةُ الهامرزِ حتى تولّتِ[4]

---

(1) الكِسَفُ : القطع ، يريد أنَّ ألوانَها مختلفة .

(2) وفي رواية : تخنف ، بدل تخفق ، والخنف : الميل .

(3) بذّخت : تطاولتْ وتكبَّرتْ ، وبذخَ البعيرُ : اشتدَّ هديره فلم يكنْ فوقه شيءٌ .

(4) ورويَ هذا البيتُ في لسان العرب :

وهم ضربوا بالحنو حنو قُراقرٍ وذي قارِها منها الجنود فقلّتِ

على كلِّ محبوكِ السَّراةِ كأنه عقابٌ سرتْ من مرقبٍ إذ تدلَّتِ[1]
فجاءتْ على الهامرزِ وسطَ بيوتِهم شآبيبُ موتٍ أسبلتْ فاستهلَّتِ
تناهتْ بنو الأحزابِ إذ صبرَتْ لهم فوارسُ من شيبانَ غلبٌ فولَّتِ

وقال العديلُ بنُ الفرجِ العِجْلي :

ما أوقدَ الناسُ من نارٍ لمكرُمةٍ إلاّ اصطلينا وكنّا مُوقدي النارِ
وما يعدُّونَ من يومٍ سمعتُ به للناسِ أفضلَ من يومٍ بذي قارِ
جئنا بأسلابِهم والخيلُ عابسةٌ لَمّا استلبْنا لكسرى كلَّ إسوارِ[2]

وقال أبو كلبةَ التميميّ :

لولا فوارسُ لا مِيلٌ ولا عُزُلٌ من اللهازمِ ما قظتُم بذي قارِ[3]

---

[1] وفي رواية : مجبول ، بدل محبوك .. والله تعالى أعلم .

[2] الإسوار : قائدُ الجيش عند الفرسِ ، وقيلَ : هو الرامي الماهر للسهام ، والجمع أساورة وأساور .

[3] الأميل : الذي لا سيفَ له ، أو لا رمحَ معه ، أو ليس معه ترس ، وقيل : هو الجبَان ، أو الذي لا يثبتُ على ظهر الخيل ، والجمع مِيلٌ .
والعُزُل : الذي ليس معه سلاح .
واللهازم : هم بنو تميم . وقظتُم : يقال : قاظَ الرجل : مات .

إنَّ الفوارسَ من عِجْلٍ هـمُ أنفوا من أنْ يُخلُّوا لكسرى عرصةَ الدارِ[1]
لاقَوا فـوارسَ من عـجـلٍ لشكتِها ليسوا إذا قُلِّصَتْ حـربٌ بـأغمـارِ[2]
هـمُ الذين أتَـوْهم عن شـمـائلِهـم كـمـا تـلـبَّـسَ وُرَّادٌ بـصُـــدَّارِ

وقال لقيطُ الإيادي يمدحُ بني شـيبانَ لِمَـا أبلَـوه في يومِ ذي قارٍ :

قوموا قياماً على أمشاطِ أرجلِكم ثم افزعوا قد ينالُ الأمنَ مَنْ فزعـا
وقـلِّـدوا أمـرَكـم للهِ دُرُّكُــــمُ رحبَ الذراعِ بأمرِ الحربِ مضطلعا
لا مُترفاً إنْ رخاءُ العيشِ ساعدَه ولا إذا عـضّ مكروهٌ بـه خَشـعـا
ما زالَ يحلبُ هذا الدهرُ أشطرَه يكونُ متّبِعـاً طـوراً ومتَّبَعــا[3]

---

[1] عرصةُ الدار : القطعة من الأرضِ ليس فيها بناء ، والجمعُ عِـراص وعَرَصات .

[2] الشكة : السلاح . وأغمار : جمع غمر ، وهـو رجـلٌ ليـس لـه تجربةٌ بحرب .

[3] أشطر الدهر : أخباره وضروبُه .

حتى استمرَّ على شزرٍ مريرته مستحكمَ الرأيِ لا قحماً ولا ضرعا[1]

وقيل غير ذلـك كثـيرٌ مـن الشـعرِ الـذي تغنّـى بـه الشعراءُ ، وافتخروا بذلك اليومِ العظيمِ الـذي يعـدُّ بحـقٍّ مفخرةً للعرب إلى يوم القيامةِ .[2]

---

[1] القحمُ : الكبيرُ من الإبل .

[2] تاريخ الطبري ، الكامل في التاريخ ، تاريخ ابن خلـدون ، مـروج الذهب ، العـالم الإسـلامي ، أيـام العـرب في الجاهليـة ، تـاريخ أبـي الفداء ، تفسير القرطبي ، لسان العرب ، المصباح المنير ، معركـة ذي قار ، بردة المديح للبوصيري .

خاتمة

في أثرِ الإسلام في يوم ذي قار

أشرقتِ الشمسُ على بطحاء ذي قارٍ وما يحيطُ بها من سهولٍ وجبالٍ ، وألقَتْ على الأرضِ رداءً نقيّاً من نورِها المتوهِّجِ الذي همَدَ له كلُّ شيءٍ ، وهدأتِ الأصواتُ ، وسكنتْ صلصلةُ السيوفِ ، واختفتْ قعقعةُ الرماحِ ، وخفَتَ صهيلُ الخيولِ ، وخيَّمَ على المكان صمتٌ مطبقٌ فيه هيبةٌ وجلالٌ ..

لقدِ انتهتِ معركةُ ذي قار وخلَّفتْ وراءَها للعربِ أفراحاً عامرةً ، وللغزاةِ المعتدين أحزاناً عميقةً ، وآلاماً مُمِضَّةً .

ما هي إلاّ ساعاتٌ قليلةٌ من نهارٍ حتى انتهتِ المعركةُ التي استمرَّ الاستعدادُ لها من الفريقين أياماً

وأياماً .. أياماً مـن الجِـدِّ والعمـل والتخطيـطِ والـترتيب انتهتْ خلالَ ساعاتٍ قليـةٍ وقبـلَ أن ينتصـفَ النهـارُ ، كما قال أعشى بكرٍ مفتخراً :

وخيلُ بكرٍ فما تنفكُّ تطحنُهم حتى تولَّوا وكادَ اليومُ ينتصفُ

وكأنَّ اللهَ عـزّ وجـلَّ أطلـعَ نبيَّـه محمـداً ﷺ علـى وقـائعِ المعركـةِ ، وأعلَمَـه بنتائجهـا ، وكـان ذلـك سنة ٦١٢ للميلاد ، وبعد بعثـةِ النبيِّ ﷺ بثلاثِ سنين ، وكانتِ الدعوةُ الإسلاميةُ سِرِّيةً لم تُجاوزْ أطـرافَ مكـةَ المكرمة ، إذ لم يكنِ النبيُّ ﷺ قد أُمِرَ أن يجهرَ بدعوتهِ .

وبينما هو جالسٌ ذاتَ يومٍ مـع أصحابـهِ ، إذ رنـا بصرُه إلى الأفُق ، وأخذَ يُصغي باهتمامِ مَنْ يتلقّى همساً وسرَّاً ، ثم نظرَ في وجوهِ أصحابهِ ، وقال لهـم : « هـذا أوَّلُ يومٍ انتصفَ فيه العربُ من العجمِ، وبي نُصِروا » .

إنَّ أحدَنـا حينَ يقرأُ قولَ النبيِّ محمدٍ ﷺ : « وبي

نُصروا » أو يسمعهُ يُتلى أمامَه يأخذُه العجَب ، وترتسمُ على وجهِهِ علامات الاستفهامِ، ويدعوه الفُضولُ وحبُّ الاستطلاعِ أن يتساءلَ :كيف نُصِرَ العربُ بالنبيِّ ﷺ وهمُ الذين لم يرَوه ، ولم يجتمعوا به ، ولم يعلموا شيئاً عن دعوتهِ ولم تبلُغْهم أصلاً ؟!

إنَّ هذه العبارةَ لم تأتِ من فراغٍ ، ولم يتلفَّظْ بها النبيُّ ﷺ عبثاً، ولم تَجْرِ على لسانهِ عفوَ الخاطرِ، بل إنَّ لها سبباً، وإنَّ لها مناسبةً، وإلاّ لم يقلْها ولم يتلفَّظْ بها .

إذ يمكنُ أن يقالَ : بأنَّ دعوةَ الإسلامِ انتقلتْ من مكةَ عن طريقِ بعضِ التجارِ أو المارِّينَ بمكةَ إلى العراقِ وبلادِ فارسَ فسمعَ بها أهلُ تلكَ البلاد دونَ أن يُحيطوا بتفاصيلِها ، وحين وقعتْ معركةُ ذي قار، ورأى العربُ البكريون جحافلَ الفرسِ تتدفَّقُ إلى ذي قارٍ لتستأصلَهم

وتقضيَ عليهم ، أخذوا يتشاورونَ لوضعِ شعارٍ يرفعونهُ أثناءَ القتالِ على عادةِ العربِ أيامئذٍ .

لقد قـرأتُ منـذُ أعـوامٍ طويلـةٍ مقـالاً نشـرتْه مجلّـةُ العربي ، يدورُ حولَ موضوعِ معركةِ ذي قـار ، تحـدَّث الكاتبُ عن تفاصيلِ المعركة وقال بما معناه:

لقد اتفقَ البكريونَ أن يكونَ شعارُهم أثناءَ القتال: (وامحمداه .. وامحمداه) حينَ اقترحَ بعضُهم ذلك وقـال: يا قومُ ، لقد سمعنا بأنه ظهرَ بمكةَ رجلٌ مبارَكٌ يدعو إلى عبادةِ اللهِ وتوحيده ، وإلى مكارمِ الأخـلاق ، ومحاسـنِ الأعمال ، وإنَّ اسمَه محمد بنُ عبد الله .

وقال آخرُ : لقد سمعنا أنه يقول : إنّه رسولُ الله، فما يمنعُنا أن نستنصرَ به ؟

فاتفقَ القومُ على أنْ يستنصروا به، وأنْ يجعلوا اسمَه شعاراً لهم ، ففعلوا ، فنصرَهمُ الله تعالى .

لقد فعلوا ذلك بدافعِ العاطفــةِ العربيــةِ ، ووشـيجةِ القربى التي تربطُ بين جميعِ العرب .

لقد استنصروا بمحمدٍ ﷺ دونَ أن يَرَوه أو يعلمــوا عنه شيئاً ، فكيفَ بهم لو اســتنصروا بـه وهـم مؤمنـونَ بدعوتهِ ورسالتهِ ؟!

لقد استنصروا بمحمدٍ ﷺ لأنه عربيٌّ مثلُهـم ، ولم يعلموا عنه سوى اسمِهِ ..

ولعـلَّ هـذا تفسـيرُ قولِـهِ ﷺ : « وبـي نُصِـروا ».

وصدقَ رسولُ الله ﷺ وهو الصادقُ المصدوق .

تمت الرسالة

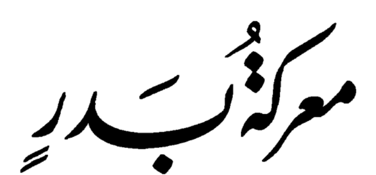
والحمد لله أولاً وآخراً وبَدءاً وختاماً

وإلى لقاءٍ مع رسالةٍ أخرى

الفهرس

معارك عربية خالدة

٢



معركة بدر

اعـــداد

عبد القادر الشيخ ابراهيم

مراجعة

أحمد عبد الله فرهود

دار القلم العربي

منشورات

دار القلم العربي بحلب

الطبعة الأولى

١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

عنوان الدار

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

شارع هدى الشعراوي

هاتـف : ٢٢١٣١٢٩ ص. ب : / ٧٨ / فاكس : ٢٢١٣٣٦١ ٢١ - ٠٠٩٦٣



الحمدُ للهِ واهبِ النّعم الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لـــم يعلم. اللهم لك الحمدُ على مايسّرت وأعنت، ولك الشكر على مـا وفقّت وهديتَ، ولك الفضل على ما تكرّمت وأعطيت.

اللهم أحينا مسلمين، وتوفّنا مسلمين، وألحقْنا بالصـــالحين، غيرَ خزايا ولا نادمين.

اللهم صلِّ على سيّدنا محمد وعلى آله وأصحابـــه الذيـــن شادوا الدّينَ وضحّوْا بأموالهم و أنفسهم في سبيل رفع لوائه عالياً خفاقاً، فكانوا دعاةَ حق، وهداةَ خيرٍ، وأئمّةَ عدلٍ، أوصلوا تعـــاليمَ الإسلامِ إلى كلِّ بقاع الأرضِ، ونشـــروا فيـــها الأمـــنَ والخـــير والسلامَ ففُتِحتْ لهم قلوبُ العبادِ قبل أن تُفتح لهم البلادُ بالتزامـــهم آداب الإسلام، وتخلّقهم بأخلاقهِ، وعملهم بشرعه. فكـــانوا كمـــا حدّث عنهم القرآنُ الكريم : خيرَ أمّة أُخرجت للناس.

أولئك كتَب في قلوبهم الإيمانَ وأيّدهم بروح منه ويدخلُـــهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها رضـــي اللهُ عنـــهم ورضُوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزبَ الله هم المفلحون .

أمّا بعدُ:

فإن غزواتِ الرسول ﷺ وما فيها من عـــبر وعظـــات، وحكم ومعجزات، وما تشتملُ عليه من دروسٍ وآيـــاتٍ جعلتنـــي أقوم بكتابتِها، وبيان تفاصيلها، وشرح مقاصدِها لأقدّمـــها هديـــةً لكل مؤمنٍ بالله، مُحِبّ لرسول الله ﷺ، متعطّش لمعرفة ســـيرتِه العطرةِ، وغزواتِه الشُجاعةِ، ومواقفِه الجريئة، وجهادِه الدائمِ فهو القدوةُ الصالحة، والأسوةُ الحسنةُ لمن كـــان يرجـــو اللهَ واليـــومَ الآخر وذكرَ اللهَ كثيراً.

هذا. وقد راعيتُ التسلسل الزمنيَّ للغزوات وجعلتُها مرتَبةً بحيث تكونُ كل غزوة في رسالة مستقلة. وقد دعمت كلَّ حادثـــةٍ وموقفٍ بما يناسبُ من الآيات القُرآنيةِ والأحاديثِ النبويةِ معتمـــداً على أهم المراجع وأشـــهرِها فـــي الســـيرة النبويـــة والتـــاريخ الإسلامي وهي:

١ــ القرآن الكريم.

٢ــ صحيح البخاري.

٣ــ صحيح مسلم.

٤ــ تفسير القرطبي.

٥ــ تفسير ابن كثير.

٦ــ البداية والنهاية لابن كثير.

٧ــ سيرة ابن هشام.

٨ ـ الإصابة في تمييز الصحابة.

٩ـ الاستيعاب في أسماء الأصحاب.

١٠ـ صفة الصفوة.

فجاءت بعون الله تعالى واضحةً سهلةً مهذَّبة بعيـــدة عـــن التعقيد والتطويل والحمد الله رب العالمين.

ولا أربَ لي إلا ابتغاءُ وجهه الكريم، وخدمةُ سيرة ســـيد المرسلين سيدنا محمد ﷺ.

رب اشْرح لي صدْري. ويسّر لي أمرِي، واحلُلْ عقدة مــن لساني يفقهوا قولي.

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين

معنى الجهاد
حُكمُه. فضلُه. الحثُّ عليه

١ــ معناه

(الجهادُ) أصلهُ لغةً مأخوذٌ من الجهد، وهو المشقة والطاقة.

وشرعاً : بذل الجهد في قتال الكفار لإعلاء كلمة الله. قال الله تعالى[1] ﴿ **وقاتِلوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكون الدينُ كلُهُ للهِ** ﴾. صدق الله العظيم

ويُطلَق أيضاً في الشرع على مجاهدةِ النَفس والشيطان والفُسّاق.

فأمّا مجاهدةُ النفسِ: فعلى تعلّمِ أمورِ الدّين العملِ بها وتعليمِها، و حبسِها عن المعاصي، ومنعِها من الاسترسال في الهوى والشهوة. وأمّا مجاهدةُ الشيطانِ : فعلى دفعِ ما يأتي به من الشُّبهات وما يزيّنهُ من الشهوات.

وأمّا مجاهدةُ الفسّاق : فعلى ما يثيرونه من دعاياتٍ مُضلِّلةٍ وأقاويلَ كاذبةٍ تضرُّ بالمسلمين، وتعكّر صفوَهم، وتضعِفُ بنيانَهم، وتثبّطُ هِممَهم.

---

(١) الأنفال : ٣٩

والذي يعنينا من التعريفِ ــ الأولُ وهو (بذلُ الجهد في قتال الكفّارِ لإعلاءِ كلمةِ الله) لأن مُعظمَ محورِ الحديث سيدور حولَ هذا المعنى.

٢ــ حكمه

جاءتْ آياتٌ وأحاديثُ كثيرةٌ تتعلّق بحُكم الجهاد وتأمر المسلمين بتطبيقهِ، وتحذّرهم من تركه والتخلف عنه.

١ــ منها قولُه تعالى:[١] ﴿ **كُتبَ عليكم القتالُ وهو كرهٌ لكم** ﴾.

وقولُه تعالى: [٢] ﴿ **انفِروا خِفافاً وثِقالاً وجاهدوا بأموالِكم وأنفِسكم في سبيل الله** ﴾.

وقولُه تعالى: [٣] ﴿ **ماكان لأهلِ المدينةِ ومَنْ حولَهم من الأعرابِ أن يتخلّفوا عن رسولِ الله** ﴾.

وقولُه تعالى: [٤] ﴿ **ياأيُّها النبيُّ جاهدِ الكفارَ والمنافقينَ واغلُظْ عليهم** ﴾.

وقولُه تعالى: [٥] ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكون الدين كُلُّه لله** ﴾.

وقولُه تعالى: [٦] ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتِلونكم ولا تعتدوا** ﴾.

---

(١) البقرة: ٢١٦ (٢) التوبة: ٤١ (٣) التوبة: ١٢٠

(٤) التوبة: ٧٣ (٥) الأنفال: ٣٩ (٦) البقرة: ١٩٠

وقولُه تعالى: [1] ﴿ واقتلوهم حيثُ ثقِفتموهم وأخرجوهــم من حيثُ أخرجوكم ﴾.

وقولُه تعالى: [2] ﴿ فقاتلْ في سبيل الله لاتُكلَّفُ إلا نفسَــكَ وحرّضِ المؤمنين ﴾.

وقولُه تعالى: [3] ﴿ فإذا لقيتــم الذيــن كفــروا فضَــرب الرقاب ﴾. وآياتٌ كثيرة غيرها مفرقة في ثنايا صفحات القــرآن الكريم.

٢ــ وأمّا الأحاديثُ النبوية فقولُه ﷺ: ﴿ من مــات ولــم يغزُ ولم يحّدثْ نفسَه بالغزو مات ميتَةً جاهليةً ﴾.

وقولُه ﷺ يومَ الفتح: ﴿ لا هجرةَ بعد الفتحِ ولكنْ جِــــهادٌ ونيةٌ. وإذا استُنْفِرتم فانفِروا ﴾.

ومنها بيعتُه ﷺ الأنصــارَ ليلــةَ العقبــة علــى الإيــواء والنُّصرة.

وبالتأمّل في هذه النصوص يتبيّن لنا وجوبُ الجهاد. فقولــه تعالى ﴿ كُتب عليكم القتال ﴾ بمعنى فُرض، لكنه يكونُ فــرضَ عيْنٍ، ويكون فرض كفايةٍ.

١ــ يكون فرضَ كفايةٍ: إذا لم يتهدّدْ بلادَ المسلمين خطــرٌ داهمٌ. فإذا قام به عددٌ من المسلمين سقط الإثمُ عن الباقين.

---

(١) التوبة: ١٩١ (٢) النساء: ٨٤

(٣) محمد: ٤

٢ــ ويكون فرضَ عيْنٍ: إذا تعرّضــتْ بــلادُ المســلمين لأيٍّ اعتداءٍ فيكون حينئذ كلُّ مسلم مطالبــاً بالجــهاد كــلٌّ قــدرَ طاقتِــه واستعداده.

ومن رحمة الله تعالى بعباده أن رخّص لبعضهم بترك الجــهاد وأعفاهم من فريضته لأن فيهم الصغير والمعذور ومن لاقدرةَ له علــى القتال. فقد رد رسول الله ﷺ عدداً من الصحابة ومنعهم من الجــهاد لصِغرهم وكونِهم دون خمسَ عشرةَ سنةً.

وأُعفِي أصحابُ الأعذارِ في قولِه تعــالى:[1] ﴿ **ليــس علــى الأعمــى حــرجٌ ولا علــى الأعــرجِ حــرجٌ ولا علــى المريــضِ حرجٌ** ﴾.

كذلك أعفيَ من منعه أحدُ أبويه. فقد رُوِيَ أن رجلاً هاجر إلــى النبيِّ ﷺ من اليمن، فقال له النبي ﷺ: هل لك أحدٌ باليمنِ؟ فقــال: أبواي. فقال: أذنا لك؟ فقال: لا. قال: ارجعْ إليهما فاستأذنْها فإن أذنــا لك فجاهدْ وإلا فبرّهما.

كذلك أُعفي من عليه دَيْنٌ ومنعه غريمُه مــن الجــهاد لقــول رسول الله ﷺ: ﴿ يغفَرُ للشهيدِ كلُّ ذنبٍ إلا الدَّيْنَ فإن جبريلَ عليــه السلامُ قال لي ذلك ﴾.

٣ــ فضله:

إذا أردْنا أن نلقيَ نظرةً فاحصةً في كتاب الله ــ تبارك وتعــالى ــ لنضــعَ أيدينَــا علــى الآيــات الكريمــة التــي تبيّــن فضــلَ

---

(١) النور: ٦١

الجهاد وما جعل اللهُ للمجاهدين في سبيلهِ من أجرٍ عظيمٍ، وثوابٍ كبير، ومغفرة الذنب، ودخولِ الجنة، والنّجاةِ من النــار رأيناهــا مليئةً بالدعوة الحارّةِ إلى الجهاد كيف وقد وَعَدَ بذلك أوفى واعــدٍ وأكرمُ قائلٍ على لسان أصدق رسولٍ وخير نبيّ محمدٍ ﷺ، يقول تعالى في سورة بــراءة: (١) ﴿إن اللهَ اشــترى مــن المؤمنيــن أنفسَهم وأموالَهُم بأنّ لهم الجنةَ يقاتِلون في سبيل الله فَيقتلــون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيلِ والقـــرآنِ ومَــنْ أوفَى بعهدهِ من اللهِ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هــو الفوزُ العظيم ﴾.

ويقول تعالى في سورة الصّفً : (٢) ﴿ ياأيُّها الذين آمنــوا هل أدلُّكم على تجارةٍ تنجيكم من عذاب أليــمٍ. تؤمنــون بــالله ورسولهِ وتجاهدون في سبيلِ الله بأموالكم وأنفسِكم ذلكم خــيرٌ لكم إن كنتم تعلمونَ. يغفرْ لكم ذنوبكم ويدْخلكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ ومساكنَ طيبةً في جنات عدنٍ ذلك الفوزُ العظيــمُ. وأخرى تحبونها نصرٌ من اللهِ وفتحٌ قريبٌ وبشّرِ المؤمنين ﴾.

ويقول تعالى في سورة النســـاء: (٣) ﴿ فضّــل اللهُ المجــاهدين بأموالِهِم وأنفسهم على القــاعدين درجــةً و كُــــلاً وعــد اللهُ الحسنى وفضّل اللهُ المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾.

---

(١) التوبة:١١١ (٢) الآيات:١٠-١٣

(٣) الآية:٩٥

ويقول تعالى في سورة النساء أيضاً: [1] ﴿ **فليقاتلْ في سبيلِ اللهِ الذين يشْرون الحياةَ الدنيا بالآخرةِ ومَنْ يقاتِلْ في سبيلِ اللهِ فيُقتلْ أو يغلبْ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً** ﴾.

والآياتُ في هذا الموضوع كثيرةٌ.

كما جاءت السنّةُ النبويّةُ المطهّرة لتنقلَ البشارةَ ذاتَها للمجاهدين في سبيل الله. يقول رسولُ الله ﷺ: ﴿ تضمن اللهُ لمن خرج في سبيله لايخرجُه إلا جهاد في سبيلي. وإيمانٌ بي وتصديقٌ برسلي. فهوعلى ضامنٌ أن أُدخلَه الجنةَ أو أرجعه إلى مسكنِه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجرٍ أو غنيمةٍ. والذي نفسُ محمدٍ بيدِه ما كلْمٌ يُكْلَمُ في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئتِه حين كُلِمُ لونهُ لونُ دم. وريُحُهُ ريحُ مسكٍ، والذي نفسُ محمدٍ بيدِه لولا أن أشقَ على المسلمين ما قعدت خلافَ سريةٍ تغزو في سبيل الله أبداً. ولكن لا أجدُ سعةً فاحملَهم. ولايجدون سعةً ويشقُ عليهم أن يتخلفوا عني. والذي نفسُ محمد بيده لوددْتُ أن أغزو في سبيل الله فأقتل. ثم أغزو فأُقتل ﴾.

ويقول أيضاً: ﴿ لروحةٌ في سبيل الله أو غدوةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها ﴾ . ويقول أيضاً: ﴿ مَن اغبرّتْ قدماه في سبيل الله حرّمه اللهُ على النار ﴾.

ويقول أيضاً: ﴿ اعلموا أنّ الجنةَ تحت ظلالِ السيوف ﴾.

---

(١) الآية: ٧٤

هذا قليلٌ من كثير، وغَيْضٌ من فيض مما تعرّض له القرآنُ الكريم، والسنّةُ النبوية المطهرة لبيان فضل الجهاد والمجاهدين في سبيل الله وهو كافٍ في دفع الإنسان إلى بذل النفْسِ والنَفيس، والغالي والرخيصِ، طَيّبةً به نفسُه، مرتاحاً له يقينُهُ. فما أعظمَ هذا التبايعَ، وما أجلَّ خطرَه! فإن الله عزّ وجلّ هو المشتري والثمن جناتُ النعيم، والفوز بالرضوان العميم، والتمتّع برؤية الله الكريم وذلك هو الفوز العظيم.

٤ـ الحث عليه:

أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالجهاد، وجاءت آيات كثيرة تَحثّ عليه وتُلهبُ المشاعرَ، وتثير الحماسَ، وتحركُ الوجدانَ، وتجعل القلوبَ تفيض بالحركة والحيويةِ والنّشاط.فما كان من المسلمين إلا أن استجابوا لهذا الأمرِ، وتفاعلوا معه وضحَّوْا بكل غالٍ ونفيس، واستهانوا بكلٍّ ما يملكون لإعلاءِ كلمةِ الله ونشرِ دينهِ ولو كرهَ الكافرون. فكلُّ شيءٍ يهونُ ما دام في سبيل الله وابتغاءَ وجهه ونيلِ مرضاتِه.

يقول تعالى: ﴿ **فلْيقاتل في سبيل الذين يشرون الحياةَ الدنيا بالآخرة ومنْ يقاتلْ في سبيل الله فيقتلْ أو يغلبْ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً** ﴾.

ويقول أيضاً: ﴿ **فقاتلْ في سبيل الله لا تُكَلّفُ إلا نفسَكَ وحرّضِ المؤمنين** ﴾.

ويقول أيضاً: ﴿ فـــإذا لقيتـــم الذيـــن كفـــروا فضـــربَ الرقاب ﴾.

ويقول أيضاً: [1] ﴿ إذ يوحي ربُك إلى الملائكةِ أنّي معكـم فثبّتوا الذين آمنوا سأُلقي في قلـــوب الذيـــن كفـــروا الرعـــبَ فاضْربوا فوق الأعناقِ واضربوا منهم كلَّ بنانٍ ﴾.

ويقولُ أيضاً: ﴿ ياأيها النبيُّ جاهدِ الكفـــارَ والمنـــافقين واغْلُظْ عليهم ومأواهم جهنمُ وبئسَ المصير ﴾.

ويقول أيضاَ: [2] ﴿ يا أيها النبيُ حرّضِ المؤمنين علــــى القتال ﴾.

ويقول أيضاً: [3] ﴿ فإذا انسلخ الأشهرُ الحرمُ فاقتلُوا المشـــركين حيثُ وجدتموهم وخذوهم و احصُروهــــم واقعـــدُوا لـــهم كـــلَّ مَرْصَدٍ ﴾. وآياتٌ أخرى كثيرةٌ تحثُّ المسلمين على القتال.

وقد سُئل رسولُ الله ﷺ. أيُ العملِ أفضلُ؟

قال: إيمانٌ بالله ورسولهِ. قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهادُ فـــــي سبيل الله.قيل: ثم ماذا؟ قال: حجٌ مبرور.

وعن جابر قال: قال رجل للنبي ﷺ يومَ أُحُد: أرأيتَ إن قُتِلتُ فأين أنا؟ قال: في الجنةِ. فألقى تمراتٍ في يـــدِهِ. ثم قاتل حتى قُتل.

---

(١) الأنفال:١٢ (٢) الأنفال:٦٥

(٣)التوبة:٥

وعن أنس. أن عُمر بنَ الحُمام أخرج تمراتٍ فجعل يــأكلُ منهن ثم قال: لئن أنا حَييتُ حتى آكل تمراتي إنها لحياةٌ طويلــةٌ ثم قاتل حتى قُتل.

والواقعتان مختلفتان حيث جاء في حديث أنــس أن ذلــك كان يوم بدرٍ. وفي حديث جابر أن الآخرَ كان يومَ أُحُد.

وماهذه البطولاتُ وغيرُها عبرَ التاريخ الإسلامي إلاّ مــن ثمراتِ الإيمانِ الراسخِ واليقينِ الكاملِ بالله واليومِ الآخِرِ. لذلك لم يأمُرِ الإسلامُ بالجهاد إلا بعد أن رسّخ عقيدةَ الإيمانِ في قلــوب رجالٍ عقيدتُهم بالله واليوم الآخر قويّةٌ صلبة لا تتزلزل، من أجل ذلك لم يكادوا يسمعون داعيَ الجهاد حتى أقدموا عليه وقد هــانت عليهم نفوسُهم فباعوها رخيصةً في ســبيل الله مُؤثِريــن النعيــمَ الدائمَ على النعيم الزائلِ. فما متاعُ الحياة الدنيا فــي الآخــرةِ إلاّ قليلٌ.

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَــهم بــأن لهم الجنةَ يقاتِلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليــه حقاً في التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ ومن أوفى بعــهدهِ مــن الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾.

مراحـــل تشريـــع الجهـــاد

بدأ رسولُ الله ﷺ دعوتَه إلى الله بالحكمـــة والموعظـــة الحسنة امتثالاً لأمر ربِّه عز وجل:[1] ﴿ **ادعُ إلى سـبيلِ ربـك بالحكمة والموعظةِ الحسنةِ وجادلهم بالتي هي أحسنُ** ﴾ فقابله المشركون بالتكذيب والتعذيـب والأذى، وذاق هـو وأصحابُـه العذابَ ألواناً في سبيل الله فصبروا واحتسبُوا واثقين بأن اللهَ عـزّ وجلّ سوف يجعلُ لهم بعد الضيق فرجاً ومخرجاً، وبعـد الأذى أمناً وسلاماً، ولما اشتدّ تعنُّـت المشـركين وبـالغوا بإيذائـهم والتضييقِ عليهم جاءوا رسولَ الله ﷺ يستأذنونه بالقتال، فقـال لهم: اصبروا فإني لم أومرْ بقتال. ولم يقلْ ذلـك عـن ضعـفٍ وهوانٍ، ولم يسكتْ أصحابُه عن جُبنٍ وخِذْلانٍ كيف وهم الذيـن قالوا له يوم العقبة: ﴿ واللهِ الذي بعثك بالحقّ إن شـئت لنميلـنّ على أهل مِنى غداً بأسيافنا ﴾. فقال لهم رسولُ الله ﷺ: ﴿ لـم نؤمرْ بذلك ﴾ ذلك وأن الجهاد في ذلك الحين كان محرماً بنـصّ قولهِ تعالى في سورة النساء[2]: ﴿ **ألم ترَ إلى الذين قيل لهم كُفّوا أيديكُم وأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ فلما كُتبَ عليهم القتـالُ إذا**

---

(١) النحل:١٢٥ (٢) الآية:٧٧

فريقٌ منهم يخشون الناسَ كخشيةِ الله أو أشدَّ خشية ﴾.

فقد كان المسلمون في مكة قِلَّـــةً لا يملكـــون ســـلاحاً، والمشركون كثرةً يشكِّلون ثقلاً وقوةً، أضف إلى ذلك أن المــــالَ والسلاحَ والسلطةَ بأيديهم. لذلك حرّم اللهُ عليهم القتالَ رحمةً بـــهم وشفقةً عليهم، فلمّا هاجروا إلى المدينة وترسّختْ عقيدةُ الإيمــــان في قلوبهم، وكثُر عددُهم بحيث يســـتطيعون مواجهـــةَ جحـــافلِ الشّرك وأعوانِ الشيطان وينتصرون عليهما كما انتصروا علـــى أنفسهم بفضل هَدْي رسولِ الله ﷺ الذي استطاع أن يَصنَع منـــهم الجماعةَ المؤمنة المنتصرةَ على الدنيـــا وشـــهواتِها، المســـتهينةَ بزينتها وزخارفِها حينئذٍ جاء الإذنُ الإلهي بالقتـــال لـــردِّ الظلـــم والعدوان وللدفاع عن النفس والدين، ثم تتابعت آيـــاتُ القـــرآن تحثُّ المسلمين على الجهاد لنشر الإسلام والعدل والسلام، وحتى لا يقفَ في طريق الدعوة عائقٌ، فكان أول آية نزلت بالإذن فـــي القتال قوله تعالى في سورة الحج:[1] **﴿ أُذن للذين يُقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن اللهَ على نصرهم لقديرٌ. الذين أُخرجوا من ديـــارهم بغير حقٍ إلا أن يقولوا ربُنا اللهُ ولولا دفعُ الله الناسَ بعضَـــهم ببعضٍ لهدّمتْ صوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكر فيها اســـمُ**

(١) الآيات: ٣٩-٤٠

اللهِ كثيراً ولينصُرَنَّ الله من ينصرُه إن اللهَ لقويٌّ عزيز. الذيـــن إن مكنـــاهم في الأرض أقامـــوا الصــــــلاةَ وآتَــوا الزكـــــاةَ وأمـــروا بالمعروفِ ونهَوا عن المنكرِ ولله عاقبةُ الأمور ﴾.

قال ابنُ كثيرٍ في تفسيره: (فلمّا بغى المشركون وأخرجـوا النبيَّ ﷺ من بين أظهُرِهم وهمُّوا بقتلِه، وشرّدوا أصحابَه شَـــذَرَ مَذَر فذهب طائفةٌ منهم إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة. فلمـــا استقرّوا بالمدينة ووافاهم رسول الله ﷺ واجتمعوا عليه وقـــاموا بنصرِه. وصارت لهم دارَ إسلام. ومعقلاً يلجؤون إليه. شرع اللهُ جهادَ الأعداء. فكانت هذه الآيةُ أولَ مانزل في ذلك).

وهذه هي المرحلةُ الثّانيةُ من مراحل تشريع الجهاد بعــــد تحريمِه. حيث أذِن لهم بعد طول حظرٍ وقوةِ صـــبر علـــى أذى المشركين.

وفي المرحلة الثالثة أمر اللهُ بجـــهادِ مـــن اعتـــدى مـــن المشركين. دون مَنْ لم يصدُرْ منهم اعتـــداءٌ رفقـــاً بالمســـلمين، وتضييقاً لدائرةِ القتال.

وإلى ذلك يشير قولُه تعالى في سورة البقرة: [١] **﴿ وقـــاتلوا فِي ســـبيل الله الذيــن يقـــاتلونكم ولا تعتـــدوا إن اللهَ لايحـــبُ**

(١) الآية: ١٩٠

المعتدين ﴾.

ثم تأتي المرحلة الرابعة ليأمر اللهُ تعالى بقتالِ المشـــركين كافةً.

قال تعالـــى في سورة بـــراءة:[1] **﴿ فإذا انسلخ الأشـــهرُ الحرمُ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصُروهـــم واقعدوا لهم كلَ مرصدٍ فإن تابوا وأقاموا الصَلاةَ وآتَوا الزكـــاةَ فخلُّوا سبيلَهم إن اللهَ غفورٌ رحيم ﴾**.

ثم تأتي المرحلة الخامسةُ والأخيرة ليكون فيها الأمرْ بقتالِ أهل الكتاب. قال تعالى في سورة براءة:[2] **﴿ قـــاتلوا الذيـــن لايؤمنون بالله ولا بـــاليومِ الآخـــرِ ولا يُحرِّمـــون مـــاحرم اللهُ ورسولُه ولا يَدينون دينَ الحقِ من الذين أُوتوا الكتـــابَ حتـــى يُعطوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون ﴾**.

قال ابن كثير: (وهذه الآيةُ الكريمة أوَلُ الأمرِ بقتال أهـــل الكتاب بعد ما تمهَدتْ أمورُ المشركين. ودخل الناسُ في ديـــن الله أفواجاً واستقامتْ جزيرةُ العرب. وكان ذلك سنةَ تسعٍ).

---

(١) الآية:٥ (٢) الآية:٢٩

أعمالُ النبيِّ ﷺ قبل غزوةِ بدر

بعد أن استقرّ المسلمون في المدينة المنورة بعـد الـهجرةِ وبنى رسولُ الله ﷺ مسجده فيـها. وآخـى بيـن المـهاجرين والأنصارِ وعقدَ معاهدةً مع قبائلِ اليهودِ وتركَ لهم فيها مُطلـقَ الحريةِ بإقامة الطّقوسِ الدينيـةِ والمعـاملات الماليّـةِ لكونِـهم مجاورين للمدينة. ولأنّهم لم يُظهروا في بادئِ الأمر مقاومـةً أو عداوة أو خصومة.

أخذ ﷺ يعقدُ الألويةَ، ويرسِل السرايا، ويشن الإغـاراتِ حول المدينة، وعلى الطرق المؤدّية إليها من مكةَ وبالعكس ومن هذه الطرق إلى الشام لاستكشافِها والتعرّف عليها لأنـها طـرقُ قوافلِ قريش لإشعار مشركي يثربَ ويهودِها، وأعرابِ الباديـة الضاربين حولها. وتجارِ مكة المارّين بها بأن المسلمين أصبحـوا يُشكلّون قوةً لايُستهانُ بها. ودولةً يحسبُ حسابُها. الأمـرُ الـذي أغاظ قريشاً واستشاطَ غضبُ زعمائها وأثار حميّتـهم. فـأخذوا يستفزّون المسلمينِ، ويتحرّشون بـهم، ويتهدّدونـهم، ويؤلّبـون عليهم. فارسلوا يتوعدونهم ويقولون لهم: لايغرّنكم أنكم أفلتمونـا إلى يثربَ، سنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم في عُقرِ دارِكم.

ثم أرسلوا إلى عميلهم عبدِ الله بن أُبي بـــنِ ســلول رأس المنافقين في يثرب يقولون له ولأصحابه: (إنكم آويتم صاحبنَـــا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنّه، أو لنسيرنَّ إليكم بأجمعِنا حتى نقتلَ مُقاتِلتَكم ونستبيحَ نساءكم) وفور وصول هذه الكتـــاب قـــام عدو الله عبدُ الله بنُ أُبيّ لتنفيذ أمرِ المشركين ولاسيّما أنه كـــان يحقِدُ على النبي ﷺ لاعتقاده أنه استلبَه ملكَه.

فقد كان ابنُ أُبيٍّ رئيسَ الأنصار قبل هجـــرةَ المســلمين، وكانوا مجتمعين عليه، وكادوا يتوّجونه ملكاً عليهم. فلما هـــاجر رسولُ الله ﷺ إلى المدينة وآمن به الأنصـــارُ وآووْه ونصـــروه واتّبعوا النورَ الذي أُنزل معه شعر عبدُ الله بنُ أبيّ بأن رســـولَ الله ﷺ قد نافسه على الزّعامة والملك واستلبَها منه. مـــن أجـــل هذا حقَد عليه وأضمر له العداوةَ، وانتظـــر اللحظـــةَ المناســـبةَ للانتقام منه. لذلك لم يكدْ يصلُ إليه كتابُ مشركي مكّة حتى قـــام لتنفيذ ما أمر به.

وبلغ الخبرُ رسولَ الله ﷺ الذي اســتطاعَ بحكمتـــه أن يطفئَ نار شرهم ويقنعَ أصحاب ابن أُبيّ بعدم الاستْماعِ لداعـــي الشّر والفساد والعُدوانِ. وبذلك تكون خطةُ قريـــش قـــد بـــاءتْ الفشل.

ثم إن سعد بن معاذ رضي الله عنه كان في مكّة مُعتمراً.

وكان في الجاهلية صديقاً لأُميةَ بنِ خلف. فلقيهما أبو جهلٍ. فقال لأمية: يا أبا صفوان مَنْ هذا معك؟ فقال : سعدُ بنْ معاذ. فقال أبو جهلٍ لسعد: ألا أراك تطوفُ بمكّة آمنا وقد آويتم الصبأةَ، وزعمتم أنكم تنصُرونهم، وتعينونهم، أما والله لولا أنّك مع أبي صفوانَ ما رجعتَ إلى أهلك سالماً. فقال سعدٌ ورفع صوتَه عليه: أما والله لئن منعتَني هذا لأمنعنَّك ماهو أشدُ عليك منه، طريقَك على أهل المدينة. لذلك فقد كانت كلُّ هذه الأحداث تعملُ على إيقاظ المسلمين. وتدعوهم لأخذ الحَيْطَةِ والحذر، فكانوا لا يبيتون إلا بالسّلاحِ ولايُصبحون إلا فيه.

رُوي أن سعدَ بنَ أبي وقاص وحذيفةَ بنَ اليمان رضي الله عنهما سهرا يحرسان رسولَ الله ﷺ فسمع خشخشةَ سلاحٍ فقال: مَنْ هذا؟ فقالا جئنا نحرسُك. فنام عليه الصّلاةُ والسلام. فنزل قولُه تعالى:[1] ﴿ **واللهُ يعصِمُك من الناس** ﴾ فأخرج رأسه وقال: انصرفوا أيُّها الناس فقد عصمني الله. فكان تأليبُ قريشٍ على النبي ﷺ، واستفزازُ أصحابه، والتحرّشُ بهم، وتهديدهم

---

(١) المائدة:٦٧

دافعاً له أن يردَّ عليهم، ويعترض طرقَهم، ويلاحق قوافلهم، ويهدد تجارتَهم.

فكان إمّا يفعلُ ذلك بنفسه أو يرسلُ مَنْ ينوبُ عنه في ذلك، فإذا خرج بنفسِه على رأسِ الجند. سُمّيتْ غزوةً، وقع فيها قتالٌ أم لم يقعْ، وإذا خرج فيها أحدُ قادتِه سُمّيت سريةً. وسوف أذكرُ هذه الغزوات والسرايا مرتّبةً حسب وقوعِها.

١ــ سريّة حمزة إلى سِيف البحر[1].

وقد وقعت في شهر رمضان السنة الأولى للهجرة، وقد أمّر رسول الله ﷺ عليها حمزةَ بن عبد المطلب رضي الله عنه في ثلاثين رجلاً من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحدٌ. وذلك ليعترض عِيراً من الشام، فبلغوا سِيفَ البحر من ناحية العيص، فلقُوا أبا جهل بن هشام في ثلاثمائة رجل، فلمّا اصْطفُّوا للقتال حجز بينهم مجديُّ بنُ عمروٍ الجُهنيُّ ــ وكان حليفاً للفريقين لذلك لم يقع بينهم قتالٌ.وكان لواءُ حمزةَ أبيضَ، يحمله أبو مرثد كنازُ بنُ حصين الغنويّ.

٢ــ سرية عبيدة بن الحارث.

وتُسمى سريةَ رابغ.

وقد وقعت في شوال السنةَ الأُولى من الهجرة. قال ابن هشام:

---

(١) السِّيف: ساحل البحر

وهي أوّلُ رايةٍ عقدَها عليه الصلاةُ والسّلام

فقد بعث رسولُ الله ﷺ عبيدةَ بنَ الحارث بنِ المطلب في ستين راكباً من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحدٌ فسار حتى بلغ ماءً بالحجاز، فلقي بها جمعاً عظيماً من قريش فتراموْا بالنَّبل، ولم يقع قتالٌ، إلا أن سعدَ بنَ أبي وقاص قد رمي يومئذٍ بسهم، فكان أوّلَ سهمٍ رُمي به في الإسلام.

وقد انضمَّ من قريش إلى المسلمين المقدادُ بنُ عمرو البهرانيُّ. وعتبةُ بنُ غزوان المازني، وكانا مسلميْنِ خرجا مع المشركين ليكونَ ذلك وسيلةً للوصول إلى المسلمين.

وكان لواءُ هذه السريةِ أبيضَ يحمله مِسطحُ بن أثاثةَ بنِ المطّلب. وقد قال ابن هشام عن هاتين السريتين: إنهما أولُ رايةٍ عقدها النبيُّ ﷺ. ثم علّل ذلك بقوله: (وبعض الناس يقول: كانتْ رايةُ حمزةَ أولَ رايةٍ عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين، وذلكَ أن بعثَه وبعثَ عُبيدةَ كانا معاً، فشُبّهَ ذلك على الناس. وقد زعموا أن حمزة قد قال في ذلك شعراً يذكر فيه أن رأيته أوّلُ رايةٍ عقدها رسولُ الله ﷺ، ثم قال: فأما ما سمعْنا من أهل العلمِ عندنا. فعبيدةُ بنُ الحارث أوّلُ من عُقد له).

٣ــ سريّةُ سعدِ بنِ أبي وقّاص.

وتسمى سريّة الخرّار، موضعٌ بالقرب من الجحفة. وكانت في شهرِ ذي القِعدة السّنةَ الأولى من الهجرة.

بعث رسول الله ﷺ سعدَ بنَ أبي وقّاص في ثمانيةِ رهــطٍ من المهاجرين، وقيل في عشرين راكباً يعترضون عيراً لقُريــشٍ فخرج حتى بلغَ الخرّار من أرض الحجاز، ثم رجع ولــم يلــقَ كيداً، وكانوا يكْمنون بالنهار ويسيرون بالليل حتى بلغوا الخــرّار، فوجدوا العيرَ قد مرّت. وكان لواءُ هذه السريّةِ أبيــضَ، يحملــه المقدادُ بنُ عمروٍ.

٤ــ غزوةُ ودّانَ. ويقال غزوةُ الأبْواء.

وكانت في شهرِ صفر. السنةَ الثانيةَ من الــهجرة. خــرج النبيُّ ﷺ بنفسِه بعد أن استخلفَ على المدينة سعدَ بــنَ عبــادة يعترضُ عيراً لقريش حتى بلغ ودان، فلم يلقَ كيداً، فأقام بها بقيةَ صفر، وصدْراً من شهر ربيعٍ الأولِ. وكــان لــواءُ النبــي ﷺ أبيضَ يحملُه حمزةُ بن عبد المطلب رضي الله عنه.

قال ابن هشام: هذه الغزوةُ أوّلُ غزواتِــه عليــه الصــلاة والسلام.

٥ــ غزوةُ بُواط.

وكانتْ في شهرِ ربيعٍ الأول. السنةَ الثانيةَ من الهجرة.

خرج رسولُ الله ﷺ في مائتين من أصحابـــه يعـترض عيراً لقريش فيها أميّةُ بنُ خلف. وسار حتى بلغ جبلَ بواط مـــن ناحية جبل رضوى ثم رجع إلى المدينة ولم يلقَ كيداً.

وكان لواؤه ﷺ أبيضَ، يحمله سعدُ بنُ أبي وقاص.

٦ـ غزوة سفَوان

قال ابن هشام: وهي غزوةُ بدرٍ الأُولى. وكانت في شـــهرٍ ربيعٍ الأوّل السنةَ الثانية للهجرة.

ذلك أن كُرزٍ بنَ جابرٍ الفِهريَّ أغار على المدينة، فنـــهب المواشي فخرج رسولُ الله ﷺ في طلبه، حتى بلغ وادياً يقال لـــه سفوانُ من ناحية بدرٍ. وفاتَهُ كُرزُ بن جـــابر، فرجـــع ﷺ إلـــى المدينة ولم يلق حرباً.

وكان لواؤه ﷺ أبيض، يحمله عليٌّ بن أبي طالب رضـــي الله عنه.

٧ـ غزوة ذي العُشَيرة.

في شهرِ جُمادى الأولى. السّنةَ الثانيـــةَ للـــهجرة. خـــرج رسولُ الله ﷺ يريد عيراً لقريش، ذاهبةً إلـــى الشـــام، فبلـــغ ذا العشيرةِ من بطن ينبُع فوجد العيرَ قد فاتّته. فأقام بذلـــك المكـــان

أياماً عقد فيها معاهدةً مع بني مُدلج وحلفائِهم من بني ضَمرةَ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً.

وكان لواؤه ﷺ أبيض، يحمله حمزةُ بن عبد المطلب رضي الله عنه.

٨ ـ سريّة عبد الله بنِ جحش.

وتسمى سريّةَ نخلة

وقد وقعت في شهرِ رجبٍ السنةَ الثانية للهجرة، بعث رسولُ الله ﷺ، عبدَ الله بنَ جحش ومعه ثمانيةٌ من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحدٌ. ودفع إليه كتاباً وأمره أن لا ينظرَ فيه إلا بعدَ يوميْنِ من مسيرِه، فيَمضي لما أمره به، ولا يستكره احداً من أصحابه.

فانطلق عبد الله وأصحابهُ لتنفيذ أمر الرسول ﷺ. وبعد يومين من المسير فتح عبد الله الكتابَ، فإذا فيه (فإذا نظرت في كتابي هذا فامضِ حتى تنزل نخلةَ بين مكّة والطائف. فترصّدْ بها قريشاً وتعلّم لنا من أخبارهم). فقال سمعاً وطاعة. ثم بلّغ أصحابَه أمرَ الرسول ﷺ فقال لهم: (قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضيَ إلى نخلة، أرصدُ بها قريشاً، حتى آتيه منهم بخبر وقد نهاني أن استكرهَ أحداً منكم. فمن كان يريد الشهادةَ ويرغبُ

فيها فلينطلقْ، ومن كره ذلك فليرجعْ، فأمّا أنـــا فمــاضٍ لأمــر رسول الله ﷺ، فاستجابوا جميعاً لدعوته ومضَوْا معه لم يتخلّـفْ منهم أحدٌ، وفي الطريق أضلّ سعدُ بن أبى وقاص، وعتبـــةُ بـــنُ غزوانَ بعيراً لهما كانا يتعقبانِه، فتخلّفا فـــي طلبـــه فأســرتْهما قريشٌ.

ومضى عبد الله وبقيةُ أصحابهُ، حتى نزلوا بنخلةَ، فمــرّتْ به عيرٌ لقريش تحمل تجارةً لهم، وفيها عمروُ بـــنُ الحضرمـــيّ وعثمانُ وأخوه نوفلُ بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيســـان. فتشاور المسلمون وقالوا: نحن في آخرِ يومٍ من رجب، الشـــهر الحرام، فإن قاتلناهم انتهكْنا الشهرَ الحرام، وإن تركنـــاهمُ الليلـــةَ دخلوا الحرمَ، فليمتنِعُنّ منكم به ولئن قتلتموهم لتقتُلُنّهم في الشـــهر الحرام، فتردّد القومُ، وهابوا الإقدامَ عليهم، وخافوا أن يقـــاتلوهم، ولكنهم مالبثوا أن اقدموا على الاشتباك بهم، وأخذِ مامعهم فرمـــى واقدُ بن عبد الله التميمي عَمرَو بنَ الحضرمـــي بســـهم فقتلـــه، وأسروا عثمانَ بنَ عبد الله، والحكمَ بن كيسان، وهرب نوفلُ بـــنُ عبد الله. ورجع عبدُ الله بنُ جحشٍ وأصحابهُ بالعير والأســـيريْنِ إلى المدينة، فلما رآهم رسول الله ﷺ أنكر فعلَهم وعاتبَهم فيـــه وقال لهم: ماأمرتكم بقتالٍ في الشهر الحرام ووقف التصرّفَ فـــي العير والأسيريْنِ حتى ينزلَ فيهم حكمٌ من السماء. وسُـــقطَ فـــي

أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنّفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، ووجد المشركون فيما حدث فرصةً للتشكيك في المسلمين واتهامهم بأنهم لايحترمون الشهرَ الحرام، وبأنهم لصوصٌ، وقُطّاع طرق. فقالوا: قد استحلّ محمدٌ وأصحابُهُ الشهرَ الحرام، وسفكوا فيه الدَمَ، وأخذوا الأموال وأسروا الرجالَ.

فقال المسلمون ممن كان بمكة: إنّما أصابوا ماأصابوا في شعبانَ.

وأخذ اليهود يُشعلونَ نارَ الفتنةِ، ويثيرون الريبةَ في قلوب المقاتلين. فقالوا: عمرو بنُ الحضرمي قتله واقدُ بن عبد الله. عَمْرو، عمرتِ الحربُ، والحضرميّ، حَضرتَ الحربُ، وواقدٌ وقدت الحربُ.

فلما كثرت الأقاويل، وانتشرت الإشاعاتُ. نزل الوحي من السماء ليحسمَها ويسكتَ أصحابَها، ويبين أن ما فعله المشركون أكبرُ وأعظمُ مما ارتكبه المسلمون.

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ **يسألونكَ عن الشهر الحرام قتالٍ فيه قلْ قتالٌ فيه كبيرٌ وصدٌ عن سبيلِ الله وكفرٌ به والمسجدِ الحرامِ وإخراجُ أهلِه منه أكبرُ عند الله والفتنة أكبر من القتل** ﴾.

فلما نزلت هذه الآية الكريمة، وفرج الله عن المسلمين ماكـــانوا فيه من الشَفَق[١]، وزال عن قلوبهم الحزن، وقبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين، ثم بعثتْ قريش في فداء عثمانَ والحكـــم، فقال رسول الله ﷺ: لافداءَ حتى يقدمَ صاحبانـــا فإنـــا نخشـــاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتلْ صاحبيْكم. فنزلُوا على رأيه، وانقـــادوا لشرطهِ وردوا إليه أسيريْه وردّ إليهم أسيريْهم.

قال ابن هشام: فأما الحكمُ بنُ كيسانَ فأسلمَ فحسنَ إسلامهُ، ثم قتل يوم بئرِ معونةَ شهيداً، وأما عثمانُ بنُ عبد الله فلَحق بمكّةَ فمات بها كافراً. أما عبد الله بن جحش وأصحابه، فمـــا تجلّـــى عنهم ماكانوا فيه من الحزن، وانقشع عنهم ماأصابهم من الخوف حين نزل القرآنُ حتى طمِعوا في الأجر، وتطلّعوا إلى الثـــواب، فقالوا: يا رسول الله أنطمعُ أن تكون لنا غزوةٌ نُعطى فيها أجـــرَ المجاهدين؟ فأنزل اللهُ في شأنهم قولهُ تعالى في سورة البقـــرة[٢]: ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هاجَروا وجاهدوا في سبيل الله أولئـك يرجون رحمةَ الله والله غفور رحيم** ﴾.ففرحت بذلـــك نفوســـهم واطمـــأنت قلوبُهم، وغمـــرهم الله بفضله وأظلهم برحمته.

قال ابن هشام عن سرية عبدِ الله بن جحش: هـــــي أولُ غنيمـــةٍ

---

(١) الشفق:الخوف (٢): الآية ٢١٨

غنمها المسلمون، وعمروُ بنُ الحضرميّ أولُ من قتله المسلمون، وعثمانُ بنُ عبد الله، والحكمُ بن كَيْسان أول من أسر المسلمون.

وقال ابن هشام: قال عبد الله بن جحش حيث قالت قريش: قد أحل محمّدٌ وأصحابُه الشهرَ الحرام وسفكوا فيه الدمَ، وأخذوا فيه المالَ! وأسروا فيه الرجال:

تَعُدّون قتْلاً في الحرام عظيمةً وأعظمُ منه لو يرَى الرشدَ راشدُ
صدودُكم عما يقول محمد وكفرٌ به واللهُ راءٍ وشاهدُ
وإخراجُكم من مسجد الله أهلَه لئلا يُرى لله في البيت ساجدُ
فإنا وإن عيّرتمونا بقتله وأرجف بالإسلام باغٍ وحاسدُ
سقيْنا من ابن الحضرمي رماحَنا بنخلةَ لما أوقد الحربَ واقدُ
دماً وابنُ عبد الله عثمانُ بيننا ينازِعُه غُلّ من القِدّ عاندُ

القد: شرك يقطع من الجلد. وعاند: سائل بالدم لا ينقطع.

تلك هي الغزوات والسرايا قبل غزوة بدر، وقد رأيتَ أخا الإسلام أنها كانت صغيرةً لم يجرِ فيها قتالٌ ولا سلبُ أموال. إلا ما كان من كُرز بنِ جابر الفِهري الذي أغار على سرحِ المدينة فنهب بعضَ المواشي، وأفلتَ من قبضة المسلمين.

ثم أخذت الأحداث تتأزّم شيئاً فشيئاً. المسلمون متيقّظون يترصدون المشركين ليثبتوا لهم أنهم قادرون على مواجهتِهم في كل حين، وقد تجسّد ذلك في كل سريةٍ، خاصة في سرية عبد الله بن جحش، والمشركون يصابون بالذعر والهلع تارةً،

ويأخذهم الكبْر والصلَف تـارة أخـرى، ويزعجُـهم أن يكـون للمسلمين بلدٌ ودولة وشـعب، وبـدلَ أن يُفيقـوا عـن غيّـهم، ويتحرروا من غُرورهم ويسلكوا طريقَ الموادعة والصُّلح كمـا فعلت جهينةُ وبنو ضمرة ــ ازدادُوا حقداً، واستشاطوا غضبـاً، وصمّموا على تنفيذ ماكانوا يهددون به المسلمين وإبادتِـهم فـي عُقر دارهم كما مر، وهذا هو التهّور الذي قادهم إلى بدرٍ حيث أُصيبوا بهزيمةٍ مُنكرة أفقدتهم صوابَهم، وحطّتْ مـن كرامتـهم، وعرّضتْهم للخزي والعار، وجعلتْهم أحاديثَ الناس وفيمـا يلـي نشرع بعون الله تعالى في ذكر تفاصيل غزوة بدر.

كانت الغزواتُ والسرايا الصغيرةُ الآنفـة الذكـر بمثابـة مُقدَمةٍ لغزوةٍ كبيرة فاصلةٍ، فإغارةُ كُرزِ بنِ جابر على المدينـة، ونهبُه بعضَ المواشي في غزوة سفوان، وإفلاتُ عـير قريـشٍ الكبرى في غزوة العشيرة، وما حدث في سريّة نخلةَ، كانت كلُّها بمثابة تمهيدٍ لغزوة بدرٍ الكبرى.

ذلك أن عيراً لقريش أفلتتْ من النبي ﷺ في ذهابها مـن مكّةَ إلى الشام فلما حان موعدُ رجوعِها إلى مكةَ، بعث النبيُّ ﷺ طلحةَ بنَ عبيدِ الله وسعيدَ بنَ زيد لمراقبتها وأخذ خبرِها، فذهبـا إلى الحَوْراءِ ومكثا فيها حتى مرتْ بهما العيرُ يقودها أبو سـفيانَ ومعه ثلاثون أو أربعون رجلاً من قريشٍ، فأسرعا إلى المدينـة، وأخبرا رسول الله ﷺ الذي ندبَ المسلمين وقال لهم: هذه عـيرُ

قريشٍ فيها أموالُهم فاخرجوا إليها لعلَ اللهَ يُنفلُكُموها ـ يجعلُها لكم غنيمةً ـ فخفَّ بعضهم وثقُلَ بعضُهم، لأنهم لم يظنّوا أن رسول الله يلقى حرباً، أمّا أبو سفيانَ فقد كان يتحسّسُ الأخبار ويسأل من لقيَ من الركبانِ، تخوُّفاً على تجارتِه، وحرصاً على أموالِه، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر أصحابَه لك ولعيرِك، فخاف المواجهةَ، وحذِرَ الأمر. فأستأجر ضمضمَ بنَ عمروٍ الغِفاريَّ أن يذهبَ إلى مكّةَ ليستنفِرَ أهلَها إلى أموالهم، ويخبرَهم أن محمداً قد عرضَ لها في أصحابِه.

ومضى ضمضمُ بن عمروٍ سريعاً حتى وصل مكّةَ، فوقف ببطن الوادي على بعيره، وقد جدَع أنفَه، وحوّلَ رحلَه، وشقَّ قميصَه، وصرخ بأعلى صوتِه: يامعشرَ قريشٍ. اللطيمةَ، اللطيمةَ، أموالُكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمَّدٌ في أصحابه، لاأرى أن تُدركوها، الغوثَ الغوثَ.

وقال ابنُ هشام: وقد رأتْ عاتكةُ بنتُ عبدِ المطلب، قبلَ قدومِ ضمضمٍ مكةَ بثلاث ليالٍ، رؤيا أفزعتْها. فبعثتْ إلى أخيها العباسِ فقالت له: ياأخي، واللهِ لقد رأيت الليلةَ رؤيا أفظَعتْني، وتخوّفتُ أن يدخلَ على قومِكَ منها شرٌّ ومصيبةٌ، فاكتم عني ماأحدثُك بهِ، فقال لها: وما رأيتِ؟ قالت رأيتُ راكباً أقبلَ على بعيرٍ له، وقفَ بالأبطحِ، ثم صرخ بأعلى صوتهِ ألا انفِروا

يالَغُدر لمصارعكم في ثلاث، فأرى الناسَ اجتمعوا إليه، ثم دخـل المسجدَ والناسُ يتبعونَه، فبينما هم حولَه مثَل به ـ قـام بـه ـ بعيرُه على ظهرِ الكعبةِ، ثم صرخ بمثلـها: ألا انفـروا يـالَغُدر لمصارعكم في ثلاث، ثم مثُل به بعيرهُ على رأس أبـي قُبيـس، فصرخَ بمثلها، ثم أخذ صخرةً فأرسلَها، فأقبلتْ تهوي، حتـى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضَّتْ ـ تفتت ـ فما بقي بيتٌ من بيـوتِ مكة، ولا دارٌ إلا دخلتْها منها فِلقةٌ قال العبـاس: والله إن هـذه لرؤيا، وأنتِ فاكتْميها، ولا تذكريها لأحد، ثم خرج العباس، فلقـي الوليدَ بنَ عتبةَ بنِ ربيعةَ، وكان له صديقاً فذكرها له، واسـتكتمَه إياَها، فذكرها الوليد لأبيه عتبةَ، ففشا الحديثُ بمكّةَ، حتى تحدثتْ به قريشٌ في أنديتِها.

وغدا العباسُ يطوفُ بالبيت، فالتقى بأبي جهل فقال له: يأبا الفضل إذا فرغتَ من طوافِك فأقبلْ إلينا، فلما فرغَ أقبلَ إليـه فقال أبو جهلٍ: يابني عبدِ المطّلب، متى حدثتْ فيكم هذه النبيّـةُ؟ قال: وماذاك؟ قال: تلك الرؤيا التي رأت عاتكةُ قال: ومـا رأتْ؟ قال: يابني عبد المطلب، أما رضيتم أن يتنبأ رجالُكم حتى تتنبـأ نساؤُكم، قد زعمت عاتكةُ في رؤياها أنه قال: انفِروا في ثـلاثٍ فسنتربّص بكم هذه الثلاثَ، فإن يكُ حقاً ما تقول فسـيكون، وإن تمضِ الثلاثُ ولم يكنْ من ذلك شيٌ، نكتب عليكـم كتابـاً أنكـم

أكذب أهل بيتٍ في العرب. قال العباس: فوالله ماكان مني إليـــه كبيرٌ، إلا أنّي جحدتُ ذلك، وأنكرتُ أن تكونَ رأت شيئاً.

وما إن أمسى المساءُ وأقبل الليل، وخيّم الظلامُ على بيوت مكّةَ حتى اجتمعتْ نساءُ بني عبدِ المطلب يلُمْن العباسَ، ويعاتِبنْـه لسكوتِه على أبي جهل، فقُلن له: أقررتم لهذا الفاسقِ الخبيـــثِ أن يقعَ في رجالكم، ثم تناولَ النساءَ وأنت تسمعُ!. ثم لم يكن عنـــدك غيْرٌ ــ غيْرَةٌ وإنكار ــ لشيء ممّا سمعتَ! قال: قـــد ــ والله ــ فعلتُ. ما كان مني إليه من كبيرٍ، وايمُ اللهِ لأتعرضَنَّ لـــه، فـــإن عاد لأكفيكَنَّه، وفي الصباح غدا إلى المسجد وهو حديدٌ مُغضَـبٌ، يرى أنه قد فاته منه أمرٌ يجب ان يدركَه، فلما رآه ودنـــا منـــه يتعرّضُ له، ليعودَ لبعض ماقال فينالَ منه، لكنّ أبا جـــهلٍ اشـــتدَّ نحوَ البابِ، فقال العباس في نفسه: ماله لعنه الله، أكلُّ هذا فـــرقٌ مني أن أشاتَمه!

لكنّ العباسَ لم يدرِ أن أبا جهلٍ قد سمع صوتـــاً رنَّ فـــي أذنه شغلَه وجعلَه يخرج مسرعاً.

صوتُ من هذا! إنّه صوتُ ضمضم بنِ عمروٍ، يصـــــرخُ من بطنِ الوادي واقفاً على بعيره، قد جدع أنفَه، وحوّل رحلَـــه، وشق قميصَه وهو يقول: يامعشرَ قريـــشٍ، اللطيمـــةَ، اللطيمـــةَ، أموالُكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمّدٌ في أصحابـه، لا أرى أن تُدركوها، الغوثَ الغوثَ.

فتجهّز الناس سراعاً، وقالوا: أيظنُّ محمّـدٌ وأصحابُـه أن تكونَ كعيرِ ابن الحضرميّ؟ كلا والله ليعلمَنَّ غيرَ ذلك. فكـانوا بين رجلَيْن، إما خارجٌ وإما باعثٌ مكانَه رجلاً. وأوعبتْ قريشٌ فلم يتخلّفْ من أشرافِها أحدٌ إلا أبا لهبٍ، فقد تخلّفَ وبعث مكانَه العاصيَ بن هشامِ بن المغيرة كان له عليه دينٌ أربعةُ آلافِ درهمٍ، لم يستطعْ أن يردّها إليه فخرج عنه، وتخلف أبو لهبٍ.

وكان أميّةُ بنُ خلف قد أجمعَ القعودَ، وأبى أن يذهبَ للقتالِ، وكان شيخاً جسيماً ثقيلاً، فأتاه عقبةُ بن أبي مُعيط، وهو جالسٌ في المسجد فجعل يوبّخه ويؤنّبه على عزمه التخلفَ، وقال له: إنّما أنتَ من النساء قال : قبّحكَ اللهُ وقبّحَ ماجئتَ به، فلم يزلْ به حتى خرجَ مع الناس. ولما فرَغوا من جهازِهم، وأجمعوا المسيرَ، ذكروا ماكان بينهم وبين بني بكرٍ من الحرب، فقالوا: إننا نخشى أن يأتونا من خلفِنا.

والحربُ التي كانت بين قريش وبين بكر: أن ولداً لحفصِ ابن الأخيفِ، خرج يبتغي ضالّةً، وكان غلاماً حسناً وضيئاً. فمرّ بعامرِ بن يزيدَ بنِ عامرِ بن الملوّح، وكان سيد بني بكر يومئذٍ، فقال من أنتَ ياغلامُ؟ قال أنا ابنٌ لحفص بن الأخيف القرشي. فلما ولّى الغلامُ، قال عامر: يابني بكرٍ مالكم في قريشٍ من دم؟ قالوا: بلى واللهِ، إنّ لنا فيهم لدماءً، قال: ماكان رجلٌ ليقتلَ هذا

الغلام برجُلِه إلا كان قد استوفى دمَه. فتبعه رجلٌ من بني بكر فقتلَه بدمٍ كان له في قريش. فأهمله قومُه فلم يطلبوا به.

فبينما أخوه مُكرز بنُ حفص بنُ الأخيف بمر الظهرانِ، إذ وقع بصرهُ على عامر بن يزيدَ، فأقبل نحوه، وعامرٌ متوشّحٌ سيفه فعلاه مُكرز بسيفِه حتى قتلَه، ثم خاض بطنَه بسيفِه، ثم أتى به مكة، فعلّقه من الليل بأستارِ الكعبة، فلما أصبحتْ قريشٌ رأوْا سيفَ عامرِ بنِ يزيدَ معلقاً بأستار الكعبة فعرفوه، فقالوا: إن هذا لسيفُ عامرِ بنِ يزيدَ، عدا عليه مُكرزُ بنُ حفص فقتله، وذكروا الدماءَ التي كانت بينهم وبين بني بكر.

فكاد ذلك يثْنيهم عن حربِهم ويمنعُهم من الخروج للقتال، فتبدّى لهم إبليسُ لعنه الله في صورةِ سُراقةَ بنِ مالكٍ، وكان من أشراف بني بكر بنِ كنانةَ، فقال لهم: أنا لكم جارٌ من أن تأتيكم كنانةُ من خلفكم بشيء تكرهونه وهكذا استطاع إبليسُ أن يُغويَهم ويوقعَهم في شباكِه، ويورّطَهم في الخروج للقتال. وحين رأى الدائرةَ تدور عليهم تخلّى عنهم، وولّى هارباً، وتركهم عُرضةً لسيوفِ المسلمين. قال تعالى في سورة الأنفال[1]: ﴿ **وإذ زَيَّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم وقال لاغالبَ لكم اليومَ من الناس وإني جارٌ لكم فلمّا تراءتِ الفئتانِ نكصَ على عقبيه وقال إني بريءٌ منكم إني أرى مالا ترون إني أخاف اللهَ واللهُ شديدُ العقاب** ﴾.

---

(١) : الآية ٤٨

وقيل كان ذلك وقت المعركة حين رأى الملائكة تضرب رقـــاب المشركين. وسوف يأتي تفصيلُه في حينه إن شاء الله تعالى.

أما رسولُ اللهِ ﷺ فقد خرجَ من المدينة يوم الاثنين لثمـانِ ليالٍ خلَوْن من شهر رمضان المبارك. وقيل كان خروجهُ يـــوم السبت لثنتيْ عشرةَ ليلةً خلتْ من رمضــــان، واسـتعمل علـــى المدينة عمرَو بن أمِّ مكتوم، وقيل: عبدَ الله بنَ أمِّ مكتوم علـــى الصلاة، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمــير رضـــي الله عنـــه، وكان أبيض وأمام رسول الله ﷺ رايتان سوداوان إحداهما مـــع عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه، يقال لها العُقاب والأخـــرى مع بعض الأنصار، لعله سعدُ بن معاذ رضي الله عنه.

وكان عددُ المسلمين يومئذ ثلاثَمائةٍ وثلاثة عشر رجــــلاً. يتبادلون الركوب على سبعين بعيراً. ولم يكـــن معـــهم ســوى فرسيْنِ: فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقـــداد بـــن الأســود رضي الله عنهما. أما جيشُ المشركين فقد كان تسعَمائةٍ وخمسين مقاتلاً،معهم مائتا فرس وستُّمائة درع، وإبلٌ لايُعــــرف عددُهـــا بالضبط، فكانوا ينحرون منها يوماً عشراً ويوماً تسعاً.

ووردت الأخبارُ إلى رسول الله ﷺ أن القافلةَ قد نجـــتْ، وأن قريشاً قد ساقتْ من مكة جيشاً جراراً لحمايتِـــها، ففوجـــئ المسلمون بهذا الخبر لأنهم لم يتوقَّعوه، ولو توقَّعوه لعملـــوا لـــه ألفَ حساب غير أن النبيَّ ﷺ استطاعَ بحكمته، وكياستِه وحســن

تدبيره أن يقنعَهم بضرورة تعقُّب المشركينَ أينما كانوا، ومهما يكنْ بعدُ الشُّقة، وفداحة المشقة فتحمّسوا جميعاً لقبول التحدي ومواجهتِه مهما كلّفهم من جهدٍ وتضحياتٍ.

وأخذ رسول الله ﷺ يطبّقُ مبدأ الشورى الذي أُمِرَ به عملاً بقوله تعالى: ﴿ **وشاورْهم في الأمر** ﴾.

وهكذا كان رسولُ الله ﷺ، يطبق مبدأ الشورى حتى أصبحَ سِمةً له، وشارة مميزة لسلوكه. فكان إذا حزبَ المسلمين أمرٌ جمع أصحابَه ليناقشَهم، ويأخذَ أراءهم فيه حتى يتوصّلَ معهم إلى الحلّ العادلِ المنسجمِ مع روح التشريع الإسلامي، ليظهرَ مبدأُ الشورى واقعاً تطبيقاً في حياته ﷺ وحياةِ أصحابِه من بعدِه.

وهنا وفي هذا الموقف الحرج أخبرَ أصحابهَ عن قريش، وجعل يشاورُهم ويبحث معهم أمرَ مواجهةِ المشركين. فقام أبو بكرِ الصدّيقُ رضي الله عنه، فقال وأحسن، ثم قام عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه، فقال وأحسنَ، ثم قام المقدادُ بنُ عمروِ رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، امضِ لما أراك اللهُ فنحنُ معك، والله لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيلَ لموسى: (اذهب أنتَ وربُّك فقاتلا إنّا هنا قاعدون). ولكن اذهبْ أنت وربُّك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثَك بالحقّ لو سرت بنا إلى برك الغماد ــ موضع بناحيةِ اليمن ــ لجالدْنا معك من دونه،

حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له به. ثـــم أراد ﷺ أن يستجليَ موقفَ الأنصارِ لأنهم يمثلون أغلبيـــةَ الجيـشِ الإسلامي، ولأنّ ثقلَ المعركة سيدورُ على كواهلـــهم، كمـــا أن نصوصَ بيعةِ العقبةِ لم تكن تلزِمُهم بالقتالِ خارجَ المدينة. لذلـــك كرّر ﷺ قولَه: أشيروا عليَّ أيُّها الناسُ، فتنبه لذلك سعدُ بنُ معاذٍ رضي الله عنه وهو قائدُ الأنصارِ،فقال: والله لكأنك تريدُنـــا يـــا رسول الله؟

قال: أجل، قال سعد: فقد آمنّا بك وصدّقناك، وشـــهدْنا أن ما جئتَ به هو الحقُّ، وأعطيناك على ذلك عـــهودَنا ومواثيقَنـــا، على السمعِ والطاعة، فامضِ يا رســـولَ الله لمـــا أردت فنحـــن معك، فو الذي بعثك بالحقِّ لو استعرضتَ بنا هذا البحرَ فخُضتَـــه لخضْناه معك ما تخلّف منا رجلٌ واحد، وما نكره أن تلقَـــى بنـــا عدوّنا غداً، إنا لصُبُر في الحرب، صُدُقٌ في اللقـــاء، ولعـــل الله يريك منا ماتَقَرُّ به عينُك، فسِرْ بنا على بركة الله. فسُرَّ رســـولُ الله ﷺ وقال: سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحـــدى الطائفتين ــ العير أو قريش ــ والله لكـــأني الآن أنظـــر إلـــى مصارعِ القوم.

ثم بعث عليَّ بنَ أبي طالب، والزبيرَ بن العوام، وسعدَ بن أبي وقاص رضي الله عنهم في نفر من أصحابه إلى مـــاء بـــدرٍ يتحسّسون له أخبارَ قريش، فأصابوا رجلين يســـتقيان لقريـــش،

فسألوهما من هما؟ وما شأنُهما؟ فقالا: نحن سقاةُ قريشٍ، بعثونـــا نسقيهم من الماء، فكرهوا خبرَهمـــا، ورجَـــوْا أن يكونـــا لأبـــي سفيان، فانهالوا عليهما ضرباً، فلمّا أوجعوهما قالا: نحن لأبـــــي سُفيانَ، فتركوهما، والنبيُّ ﷺ قائمٌ يصلي، فلما فرغَ من صلاتـــه أقبل عليهم، وقـــال: إذا صدقـــاكم ضربتمُوهمـــا، وإذا كذبـــاكم تركتموهما! صدقا والله، إنهما لقريش ثم نظر إليهما وقال لـــهما: أخبراني عن قريش، قالا: هم ــ والله ــ وراء هذا الكثيبِ الـــذي ترى بالعُدْوةِ القُصوى، فقال، كم القومُ؟ قالا: كثـــيرٌ، قـــال: مـــا عدتُهم؟ قالا: لا ندري، قال: كم ينحرون كلَّ يوم؟ قـــالا: يومـــاً تسعاً، ويوماً عشراً. فقال ﷺ لأصحابه: القومُ فيما بين التسعمائةِ والألفِ، ثم أقبل على الناس فقال: هذه مكّةُ قد ألقتْ إليكم أفـــلاذَ كبدِها.

في هذه الظروف الحرجةِ كان أبو سفيانَ متيقّظاً أشدَّ مـــا يكون الحذرُ والتيقّظ، يسألُ كلَّ مَنْ يلقاه في الطريق خوفاً علـــى تجارته، حتى علم أن جيشَ المسلمين قريبٌ منه، فغيّر طريقَـــه، وسلك طريقَ الساحل. وبهذا يكون قد نجا بالقافلةِ، فأرسل إلـــى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالَكم وأموالكم، فقـــد نجّاها اللهُ فارجِعوا. فقام الطاغيـــةُ أبـــو جـــهلٍ فقـــال بكبريـــاء وغطرسةٍ: والله لا نرجعُ حتى نردَ بدراً، فنقيم عليه ثلاثاً، فننحـــو الجزر، ونطعمَ الطعامَ، ونسقى الخمرَ، وتعزف علينـــا القيـــانُ،

وتسمع بنا العربُ وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يـــهابوننا أبــداً بعدها، فامضُوا. إنه الكبْر والبطَر والعلُـــوّ فـــي الأرض بغـــير الحق، قال تعالى عنهم: [1] ﴿ **ولا تكونوا كالذين خرجُوا مـــن ديارهم بطَراً ورئاءَ الناسِ ويصدّون عن ســـبيلِ الله واللهُ بمـــا يعملون محيطٌ** ﴾. وأقبلـــوا بحدهـــم وحديدهـــم يُحـــادّون الله ورسوله، على حميّةٍ وغضب وحنقٍ حتى نزلوا وراء كثيبٍ يقـــع بالعُدوةِ القُصوى على حدود وادي بدر.

وسار رسول الله ﷺ بجيشه إلى الشـــرق مـــن جيـــش المشركين ليحول بينهم وبين الاستيلاء على الماء.

وهنا قام الحُباب بن المنذر فقال: يارســـول الله، أرأيـــتَ هذا المنزلَ أمنزلاً أنزلكَه اللهُ ليس لنا أن نتقدمَّه ولا نتأخر عنـــه، أم هو الرأيُ والحربُ والمكيدة؟ فقـــال ﷺ: بـــل هـــو الـــرأي والحرب والمكيدة. فقال يارسولَ الله، فإن هـــذا ليـــسَ بمـــنزلٍ، فانهضْ بالناس حتى تأتيَ أدنى ماء من القوم، فننزلَه ثم نغـوّر ــ نخرب ــ ماوراءه من القُلُب ــ الآبار ــ ثم نبني عليه حوضـــاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. فقال رســـول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي. ثم أمر بالقُلُب فغورت، وبنـــى حوضـــاً على القَليب الذي نزل عليه وملأه ماء.

---

(١) الأنفال: ٤٧

وكان المسلمون قبل هذا قد أُصيبوا بـــالتعب والعطـــش والنُّعاس والجنابة ووسوس لهم الشيطانُ: تدّعون أنكم أوليـــاءُ الله وفيكم رسولُه، وكيف تقاتلون المشركين وهم على المـــاء وأنتـــم جُنُب! فامتنَّ الله عليهم بالنومِ وأكسبهم وافراً من راحـــة الجســم والفكر والأعصاب، وأمطرتِ السّماءُ ماءً. فشربوا. وتطـــهّروا. وتزوّدوا وتلبدّتِ الأرضُ تحت أقدامهم، وسهّلَتْ تحركاتِهم، فـــي حين أنها عاقت زحفَ المشركين، وعوّقت تحركاتِهم.

قال تعالى سورة الأنفال:[1] **﴿ إذ يُغَشّيكم النعاسَ أمنـــةً منه وينزلُ عليكم من السماء ماءً ليطهّركم به ويذهـــبَ عنكـــم رجزَ الشيطانِ وليربطَ على قلوبكم ويثبتَ به الأقدام ﴾.**

ثم كان بعد ذلك ما ذكر من أمر القليب، وبناء الحـــوض وملئه بالماء. وتقدّم سعدُ بنُ معاذٍ رضي الله عنه. وقال: يـــانبيَّ الله، ألا نبني لك عريشاً تكونُ فيه، ونعدُّ عندك ركائبَك، ثم نلقـــى عدوَّنا، فإن أعزنا اللهُ وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنـــا، وإن كانت الأخرى، جلستَ على ركائبك فلحقت بمَـــنْ وراءنـــا، فلقد تخلف عنك أقوامٌ يا نبيَّ الله، ما نحن بأشدَّ لك حبـــاً منـــهم، ولو ظنُّوا أنك تلقى حرباً ما تخلّفـــوا عنـــك، يمنعـــك الله بـــهم، يُناصحونك، ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسولُ الله ﷺ خـــيراً، ودعا له بخير، ثم بُنيَ له العريش، فكان فيه، ليُشرفَ منه على

---

(١) الأنفال: ١١

ساحة المعركة.

وأخذ رسول الله ﷺ يرقبُ تحرّكاتِ قريشٍ فلما رآهـم مقبلين من الوادي ــ قال: اللهم هذه قريشٌ قد أقبلت بخُيلائـها ــ وفخرها، تحادُّك وتكذّبُ رسولَك، اللهم فنصرَك الذي وعدْتَني، اللهم أحِنْهم الغداة ــ أهلكهم ــ

وكان رسولُ الله ﷺ قد رأى عُتبةَ بنَ ربيعةَ في القوم على جملٍ له أحمرَ ــ فقال: إن يكنْ في أحدٍ من القوم خيرٌ فعند صاحبِ الجملِ الأحمرِ، إن يطيعوه يرشُدوا.

أمّا قريشٌ فقد قضتْ تلك الليلةَ في معسكرِها بالعُدوةِ القُصوى، وفي الصباح أقبل نفرٌ منهم إلى حوض المسلمين. فقال النبيُّ ﷺ لأصحابه: دعُوهم، فما شرب أحدٌ منهم يومئذٍ إلا قُتل، إلا ما كان من حكيمِ بن حزامٍ، فإنه لم يُقتلْ، ثم أسلمَ بعد ذلك، فحسُن إسلامُه، فكان إذا اجتهد في يمينهِ، قال: لا والذي نجّاني من يوم بدر.

فلما اطمأن القوم، بعثوا عُمير بنَ وهب الجُمحيَّ ليأتيَهم بخبرٍ عن قوة المسلمينَ، فدار عميرٌ بفرسه حولَ العسكر، ثم رَجع إليهم فقال: ثلاثمئةِ رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظرَ أللقومِ كمينٌ أو مددٌ، فضرب في الوادي حتى أبعدَ، فلم يرَ شيئاً، فرجعَ إليهم فقال: ما وجدتُ شيئاً، ولكني قد رأيتُ يا معشرَ قريشٍ البلايا تحملُ المنايا، نواضحَ

يثربَ تحمل الموتَ الناقعَ، قوم ليس معهم منعـــةٌ ولا ملجـأ إلا سيوفُهم والله ما أرى أن يُقتلَ رجلٌ منهم حتى يقتلَ رجلاً منكـــم فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خيرُ العيشِ بعد ذلك؟ فروْا رأيكم.
فلما سمع حكيمُ بنُ حزام ذلك، أتىَ عتبة بن ربيعة، فقال: ياأبـا الوليد إنّك كبيرُ قريشٍ وسيّدُها، المطاعُ فيها، هل لك إلى خـــير تُذكر به إلى آخر الدهر؟ قال وماذاك ياحكيم؟ قال ترجعُ بالنـاس، وتحمل أمرَ حليفِك عمروِ بنَ الحضرمي ــ الذي قُتل في ســرية نخلة ــ قال: قد فعلتُ، أنت عليَّ بذلك،إنما هو حليفــي، فعلــيَّ عقلهُ ــ ديته ــ وما أصيب من ماله، فأت ابنَ الحنظليةِ ــ أبـــا جهل ــ فإني لا أخشى أن يشجر أمرَ الناس غيرُه، ثم قام عتبـــةُ خطيباً، يحثُّ الناس على الكفّ عن القتال، والعودةِ إلـــى مكـــة، فلما علم أبو جهل بأمر عتبةَ غضب وقــــال: انتفـــخَ ــ والله ــ سحْرهُ ــ كناية عن الجبن ــ حين رأى محمداً وأصحابَـــه كــلا والله لا نرجعُ حتى يحكم الله بيننا وبين محمد.
ولما بلغ عتبةَ قولُ أبي جهل: انتفخ والله سَـــحْرهُ ــ قـــال عتبة: سيعلم من انتفخ سحره، أنا أم هو.
ثم بعث أبو جهل إلى عامرِ بنِ الحضرميّ، أخي عمروٍ ــ قبل أن يتأثّر الناس برأي عتبةَ. فقال: هذا حليفُك ــ أي عتبـــة ــ يريد أن يرجعَ بالناس وقد رأيتَ ثأرك بعينك، فقم فانشد خُفْرتـك، ومقتلَ أخيك، فقام عامر فكشفَ عن استِه، وصرخ: واعمـــراه،

فحميتِ الحربُ، وحقِبَ الناسُ ـ اشتدوا ـ واستوثقوا على ما هم عليه من الشر، وأُفسد على الناس الرأيُ الذي دعاهم إليه عتبةُ.

وهكذا يكون أبو جهل قد أشعل نارَ الحربِ، وأوقد لظاها وقد أوشكت أن تخبو وتُطفأ.

وفي صبيحة يومِ الجمعةِ السابعَ عشرَ من شهرِ رمضان المبارك. وقعتْ ساعةُ الصفر، وكان الهجوم من جانب المشركين بهجوم الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وكان رجلا شرساً سيِّىءَ الخلق، فقال: أعاهدُ الله لأشربنّ من حوضهم، أو لأهدمنّه، أو لأموتن دونه فتصدى له أسدُ الله حمزةُ بنُ عبد المطلب رضي الله عنه، فضربه ضربةً قطع نصفَ ساقِه، فوقع على ظهره تشخبُ رجلُه دماً، ثم حبا إلى الحوض يبغي اقتحامه، يريد أن يبرَّ بيمينه فأتبعه حمزةُ حتى قتله داخلَ الحوض. الأمرُ الذي أثار غضبَ المشركين، وحميَّتهم، فاندفع منهم عتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعةَ، والوليدُ بنُ عتبةَ يطلبون المبارزةَ فبرز لهم فتيةٌ من الأنصار. وهم عوفٌ ومعوّذ ابنا الحارث، وعبدُ الله بن رواحة رضي الله عنهم. فقال لهم عتبةُ بن ربيعة: مَنْ أنتم؟ فقالوا: رهطٌ من الأنصار، قال: مالنا بكم حاجةٌ. وقيل إنّ عُتبةَ قال لهم: أكفاءٌ كرامٌ، إنما نريد قومنا، فقال رسول الله ﷺ: قم ياعبيدةُ بن الحارث، قم ياحمزة، قم ياعليُّ. فبارز عبيدةُ بنُ الحارث، عتبةَ

ابنَ ربيعة، وبارز حمزةُ شيبةَ بنَ ربيعة وبارز عليٌّ، الوليد بـــنَ عتبة. فأما حمزةُ وعليٌّ فلم يُمهلا صاحبَيْـــهما حتـــى قتلاهمـــا، واختلف عبيدةُ وعتبةُ بينهما ضربتيْنِ، كلاهما أثبتَ صاحبَه، فكرَّ حمزةُ وعليٌّ بأسيافِهما على عتبةَ فأجهزا عليه، ثم احتملا عُبيـــدةَ إلى رسولِ الله ﷺ، الذي أفرشه قدمَه، ثم أسلم روحَـــه لله ربِّ العالمين.

ثم تزاحم الناسُ ودنا بعضُهم من بعض وحمي الوطيـــسُ، وتهاوتِ السيوفُ. وأخذ المشركون يُمطرون المسلمين بوابلٍ مـــن سهامهم، وتصايح المسلمون أحَدٌ. أحَد. فأمرهم الرســـول ﷺ أن يكسروا هجماتِ العدوِّ، وهم يرابطون في مواقعِهم، وهو يقـــول لهم: إن اكتنفَكم القومُ فانضَحوهم عنكم بالنبلِ، ولا تحملوا عليـــهم حتى تؤذَنوا.

وأخذ ﷺ يناشد ربَّه عز وجل، ويدعوه، ويطلـــبُ منـــه النصرِ وهو يقول: اللهم إن تَهلكْ هذِه العصابةُ اليـــومَ لا تعبـــد. وأبو بكرٍ رضي الله عنه يقول له: يا نبيَّ الله: بعـــضَ مناشـــدتِك ربَّك، فإن الله منجزٌ لك ما وعدك. فقال: أبشرْ يا أبا بكر، أتـــاك نصرُ الله هذا جبريلُ آخذٌ بعِنانِ فرسٍ يقودُه، على ثناياه النَّقْعُ.

ثم خرج ﷺ يحرّضُ الناسَ، ويشجّعُهم ويحثُّــهم علــى القتال بعد أن أنزل الله عليه قولَه: [١] ﴿ **يا أيُّها النبيُّ حــرّضِ المؤمنين على القتال إن يكنْ منكم عشرونَ صــابرون يغلبــوا مائتيْنِ وإن يكن منكم مائةٌ يغلبوا ألفاً من الذين كفــروا بأنــهم قومٌ لايفقهون** ﴾.

---

(١) الأنفال:٦٥

وقف النبي ﷺ يشجّعُ أصحابَه، ويلهبُ حماسَهم، ويعدُهم بنصر الله، ويقول لهم: والذي نفسُ محمّدٍ بيده، لايقاتلُهم اليومَ رجلٌ فيقتلُ صابراً محتسباً، مقبلاً غير مُدْبر إلا أدخله اللهُ الجنةَ، فقال عُمير بنُ الحُمام، وفي يده تمراتٌ يأكلهُن: بَخٍ بَخٍ، أفما بيني وبين أن أدخلَ الجنةَ إلا أن يقتلني هؤلاء، ثم قذف التمراتِ من يده وأخذ سيفَه، فقاتل القومَ حتّى قُتل.

وهذا عوفُ بنُ الحارثِ يقول: يا رسولَ الله، ما يضحِكُ الربَّ من عبدِه؟ أي يرضيه غاية الرضى قال: غمسُه يدَه في العدوّ حاسراً. فنزع درعاً كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفَه فقاتل القومَ حتى قُتل.

وهذا حمزةُ بنُ عبدِ المطّلب يتوسّطُ أرضَ المعركةِ مرتدياً لباسَ الحربِ وعلى صدرِه ريشةُ النَعامَ التي اعتاد أن يزينَ بها صدرَه في القتال وأخذ يصول ويجول كالجمل الأورقِ لا يرى رأساً إلا قطعه ولا يلقى مُشركاً إلا قتله، يقول أميّةُ بن خلفٍ حين أسره عبدُ الرحمنِ بنُ عوف: مَن الرجلُ منكم المعلَمُ بريشةِ النعام في صدره؟ فقال عبدُ الرحمن بنُ عوف: ذاك حمزةُ بنُ عبد المطلب قال أميّةَ بنُ خلف: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيلَ.

وهذا بلالُ بن رباح لم يكد يبصرُ أميّةَ بن خلف، مع عبد

الرحمنِ بن عوف حتى صاح قائلاً: رأسُ الكفر أميّةُ بن خلف لا نجوتُ إن نجا ورفع سيفَه ليقطفَ رأسَه لكنّ عبدَ الرحمـن بـنَ عوف صاح به أيْ بلالُ... إنه أسيري، فصـاح بـلالٌ بـأعلى صوته: يا أنصارَ الله رأسُ الكفر... أميّةُ بنُ خلف، لا نجـوتُ إن نجا، فتقدّمتْ جماعةٌ من المسلمين وأحاطوا بأمية وابنِه وأهـوَوْا بأسيافهم عليهما حتى قطعوهما إرباً.

وهذا عكاشةُ بن محصن يقاتل بكل بأس وشـجاعة حتـى انقطع سيفُه في يده، فأتى رسولَ الله ﷺ فأعطـاه جـذْلاً مـن حطب، وقال له: قاتلْ بهذا يا عكاشةُ، فأخذه وهزّه بيده فعاد سـيفاً صارماً طويلَ القامة، شديدَ المتْنِ، أبيـضَ الحديـدةِ، ومضـى عكاشة يقاتل به حتى فتح الله تعالى على المسـلمين، ونصرهـم نصراً مؤزّراً.

ولم يزل ذلك السيفُ الذي يسمّى (العونَ) مع عُكاشةَ يقاتل به، ويشهد المشاهد مع رسولِ الله ﷺ حتى قُتل رضي الله عنـه في حروبِ الرّدة.

وهذا معاذُ بنُ عمرو بن الجموح يتصدّى لعـدو الله أبـي جهل، ويصمُدُ أمامه، ويضربه ضربةً قَطعتْ نصفَ ساقه.

وهذا معاذُ بنُ عفراءَ يقاتلُ وسطَ المعركةِ إذ مـرّ بـأبي جهلٍ وهو عقيرٌ، فضربه ضربةً أثبتَتْه ومضى يقاتلُ حتى قُتل.

في هذا الجوّ الساخن، والمعركةُ على اشدّها عنيفةً قاسيةً

ضاريةً، السيوفُ تتوهّج والمنايا تتواثـــبُ، والقتلـــى يَسْــقطون، والمسلمون يتصايحون: أَحَدٌ ــ أَحَد. تقدّمَ النبيُّ ﷺ فأخذ حَفنـــةً من الترابِ، فرمى بها وجوهَ المشركين وهـــو يقـول: شــاهتِ الوجوهُ، فما من المشركين من أحَدٍ إلا وأصاب عينيْهِ ومنخريْـــهِ وفمَه ترابٌ من تلك القبضة.

وفي هذا يقول الله تعالى:[1] **﴿ فلم تقتلوهمْ ولكـــنّ اللـــه قتلهم وما رميتَ إذ رميتَ ولكنّ اللهَ رمى وليُبلِيَ المؤمنين منـــه بلاءً حسناً ﴾.**

ثم أمر النبي ﷺ أصحابَه أن يحملـــوا علـــى المشـــركين فتحمّسوا وضاعفوا جهودَهم وانطلقوا يقـــاتلون بكـــلّ شـــجاعةٍ واستبسالٍ وهم واثقون بنصرِ الله حتى استنفدوا جـــهدَ أعدائـــهم، وألحقوا بهم خسائرَ جسيمةً، وانتهت المعركةُ الخـــالدةُ بهزيمـــة المشركين بعد أن كُسرتْ شوكتُهم، وسقطت رايتُهم وهم يتهاوَوْن أمام المسلمين، ويتساقطون تحت سيوفِهم الظامئة، ويفرّون مـــن أرض المعركة بعد أن قُتل منهم سبعونَ صنديداً، وأُسر ســـبعون آخرون ومَنْ بقي منهم فـــرّ هارباً إلـــى مكـــة يجـــرُّ أذيـــالَ الخيبة، متوجاً بالخزي والعار.

---

(١) الأنفال: ١٧

تأييدُ اللهِ المؤمنينَ بالملائكة

لقد أمدّ اللهُ المؤمنين يومَ بدرٍ وغيرها بالملائكة يُقاتلون معهم،ويُكثرون عددهم، ويثبّتون قلوبَهم، ويُمدّونهم بأسباب التفوق والنصر. وهذا ثابتٌ في الكتاب والسنة.

قال تعالى في سورة آل عمران:[1] ﴿ **إذ تقول للمؤمنين ألن يكْفيكم أن يُمدّكم ربُكم بثلاثةِ آلافٍ من الملائكةِ منزَلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددْكم ربُكم بخمسةِ آلافٍ من الملائكةِ مسوِّمين** ﴾.

وقال تعالى في سورة الأنفال:[2] ﴿ **إذ يُوحي ربُك إلى الملائكةِ أني معكم فثبّتوا الذين آمنوا سأُلقي في قلوبِ الذين كفروا الرُّعبَ فاضربوا فوق الأعناقِ واضربوا منهم كلَّ بنان** ﴾.

وقال في سورة الأنفال أيضاً:[3] ﴿ **إذ تَستغيثون ربَّكم فاستجاب لكم أني مُمدُّكم بألفٍ من الملائكةِ مردِفين** ﴾. ـ متتابعين تأتي فرقة بعد فرقة. ﴿ **وما جعله اللهُ إلا بشرى ولتطمئنَ به قلوبُكم وما النصرُ إلا من عندِ اللهِ إن اللهَ عزيزٌ حكيم** ﴾.

---

(١) الآيتان:١٢٤-١٢٥ (٢) الآية:١٢ (٣) الآيتان:٩-١٠

وفي السنة النبوية المطهرة:

روى مسلمٌ عن عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه قال: (لمّا كان يومُ بدرٍ نظرَ رسولُ الله ﷺ إلى المشركين وهم ألفٌ وأصحابُه ثلاثُمائةٍ وتسعةَ عشرَ رجلاً، فاستقبل نبيُّ الله ﷺ القِبلةَ، ثم مدّ يديْه، فجعل يهتفُ بربِّه: (اللهمّ أنجزْ لي ما وعدتَني اللهم آتِ ما وعدتَني اللهم إن تهلكْ العصابةُ من أهل الإسلامِ لا تعبدْ في الأرض). فما زال يهتفُ بربه ماداً يديْهِ مستقبلَ القبلةِ حتى سقط رداؤهُ عن مَنْكِبيه. فأتاه أبو بكرٍ فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمَه من ورائه وقال يا نبي الله، كفاك مناشدتُك ربَك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ **إذ تستغيثون ربَكم فاستجاب لكم أني مُمدُكم بألفٍ من الملائكةِ مردِفين** ﴾. فأمده الله بالملائكة).

قال أبو زُمَيل: فحدثني ابنُ عباس قال: بينما رجلٌ من المسلمين يومئذ يشتدُّ في أثر رجلٍ من المشركين أمامه إذ سمع ضربةً بالسّوط فوقَه وصوت الفارس يقول أقدمْ حيزومُ، فنظر إلى المشرك أمامَه فخرَّ مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِم أنفه، وشُقَّ وجهُه كضربة السوط فاخضرَّ ذلك أجمع، فجاء الأنصاريُّ فحدّث بذلك رسولَ الله ﷺ فقال: ﴿ صدقتَ ذلك من مدد السماء الثالثةِ، فقَتَلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين ﴾.

وروى البخاريُّ عن ابن عباسٍ قال: قال النبي ﷺ يوم بدرٍ: ﴿ هذا جبريلُ آخذٌ برأس فرسِه عليه أداةُ الحربِ ﴾.

يقول أبو رافع مولى رسول الله ﷺ : كنت رجلاً ضعيفاً، وكنت أعملُ الأقداحَ. أفتحُها في حُجرة زمزم، فو اللهِ إني لجالسٌ فيها أنحتُ أقداحي، وعندي أمُّ الفضل جالسة وقد سرَّنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل أبو لهب يجر رجليْه بشرٍّ، حتى جلس على طُنب الحجرة ــ طرفها ــ فبينما هو جالسٌ إذ قال الناس: هذا أبو سفيانَ بنُ الحارث بنِ عبد المطلب قد قدِم، فقال أبو لهب: هلمّ إليّ، فعندك لعمري الخبرُ، فجلس إليه والناسُ قيام عليه فقال: يا ابنَ أخي، أخبْرني كيف كان أمرُ الناس؟ قال: واللهِ ما هو إلا أن لقينا القومَ فمنحْناهم أكتافَنا يقودوننا كيف شاءوا، و يأسروننا كيف شاءوا، وايمُ الله مع ذلك مالُمتُ الناسَ لقينا رجالاً بيضاً، على خيل بُلْقٍ بين السماء والأرض، والله ما تُليق ــ تبقي ــ شيئاً، ولا يقوم لها شيءٌ.

قال أبو رافع: فرفعتُ طُنبَ الحجرةِ بيدي، ثم قلتُ: تلكَ واللهِ الملائكةُ، فرفع أبو لهب يدَه فضرب بها وجهي ضربةً شديدةً.

وذكر القرطبي في تفسيره عن سهلِ بن حُنَيف رضي الله عنه قال: لقد رأيتُنا يوم بدر وإن أحدَنا يشير بسيفِه إلى رأس المشرك فيقع رأسُه عن جسده قبل أن يصلَ إليه.

وعن الربيع بن أنس قال: كان الناسُ يوم بـــدر يعرفـــون قتلَى الملائكة ممن قتلوهم بضربٍ فوق الأعناق وعلـــى البَنـــان مثل سمةِ النار قد أُحرق به.

قال القرطبي: وقال بعضُهم: إن الملائكةَ كـــانوا يقـــاتلون وكانت علامةُ ضربِهم في الكفـــار ظـــاهرةً، لأن كـــلَّ موضـــع أصابتْ ضربتُهم اشتعلت النارُ في ذلك الموضع.

وقال: ثبت عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: رأيتُ عـــن يمينِ رسول الله ﷺ وعن يساره يومَ بدر رجلَيْن عليهما ثيـــابٌ بيض يقاتلان عليه أشدَّ قتال، ما رأيتُهما قبل ولا بعد.

وعن ابن عباس قال: أمدّ اللهُ نبيّه محمداً ﷺ والمؤمنيـــن بألفٍ من الملائكة، فكان جبريلُ عليه السلام في خمسمائةٍ مـــن الملائكة مجنبة، وميكائيل في خمسمائة مـــن الملائكـــة مجنبـــة. تفسير القرطبي.

وجاء في سيرة ابن هشام عن أبي أُسيدٍ مالكِ بن ربيعـــة، وكان شهد بدراً قال بعد أن ذهب بصرُه: لو كنتُ اليـــومَ ببـــدرٍ ومعي بصري لأريتُكم الشِّعبَ الذي خرجت منه الملائكةُ.

وعن أبي داودَ المازنيّ، وكان شهدَ بدراً قال: إني لأتبـــع رجلاً من المشركين يومَ بدر لأضربَه، إذ وقع رأسُـــه قبـــل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتلَه غيري.

وعن ابن عباس قال: كانت سيما الملائكةِ يوم بدرٍ عمــائمَ بيضاً قد أرسلوها على ظهورهم، ويومَ حُنين عمائمَ حمراً.

وعن علي بن أبي طالب قال: العمــائمُ تيجــانُ العــرب. وكانت سيما الملائكة يومَ بدر عمائمَ بيضاً قــد أرخَوْهــا علــى ظهورهم، إلا جبريلَ فإنه كانت عليه عِمامةٌ صفراءُ.

وعن ابن عباس قال: ولم تقاتلِ الملائكةُ في يومٍ سوى بدرٍ من الأيام وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عــدداً ومــدَداً لا يضربون. سيرة ابن هشام.

وهذا الإمداد والدّعم والنصرُ من الله عــز وجــل غــيرُ محدودٍ بزمانٍ أو مكان.

فكلما استوفى المؤمنون شروطَ الإمداد والدعــم والنصــر أمدّهم اللهُ بها. وهي: الصبرُ، والتقــوى، والــتزامُ أوامــر اللهِ، والأخذُ التامّ بالأسباب التي شرعها اللهُ عزّ وجل لقتال أعدائه.

وقد صبر المؤمنون يومَ بــدر، واتّقــوا اللهَ، فــأمدّهم اللهُ بخمسةِ آلافٍ من الملائكةِ كما وعدهم.

قال القرطبي في تفسيره: نزولُ الملائكةِ سببٌ من أســباب النصر لايحتاج إليه الربُّ تعالى، فهو الناصر بسببٍ وبغير سـبب

[1] ﴿ **إنما أمرُه إذا أراد شيئاً أن يقول له كنْ فيكون** ﴾. لكـــن أخبر بذلك ليمتثلَ الخلقُ ما أمرهم به من الأسباب التي قد خلــت من قبل[2] ﴿ ولن تجدَ لسنَّةِ الله تبديــــلاً ﴾ ولا يقــدَحُ ذلـــك فـــي التوكّل ... والله أعلم.

---

(١) يس:٨٢ (٢) الأحزاب:٦٢

طرح قتلى المشركين في القَليب

بعد انتهاء المعركة أمر النبيُّ ﷺ بحفرِ بئرٍ كبيرةٍ لطـرح المشركين، إلا ما كان من أُميّةَ بنِ خلف فإنه انتفخ في درعِه فلم يستطعِ المسلمون أن يحرّكوه مخافةَ أن يتفرّق لحمُه فتركوه كما هو وألقَوْا عليه ما غيّبه من التراب والحجارةِ، وجُمِـع القتلى فأُلقوا في القليب ـ البئر ـ ثم وقف النبيُّ ﷺ فوق حافةِ القليب وناداهم، قائلاً: ياأهلَ القليب، هل وجدتّم ما وعدكم ربُّكم حقـاً؟ فإني قد وجدتُ ما وعدني ربّي حقاً، فقال له أصحابُه: يا رسـولَ الله، أتُكلّم قوماً موْتى؟ فقال لهم ﷺ: ﴿ لقد علِمُوا أنّ ما وعدهم ربهم حقاً ﴾.

وفي روايةٍ: فقال المسلمون: يارسول الله، أتنادي قوماً قـد جيّفوا؟ قال ما أنتم بأسمعَ لما أقولُ منهم، ولكنهم لايستطيعونَ أن يُجيبوني.

وفي رواية أنّ رسولَ الله ﷺ قال: يا أهلَ القليب، بئـس عشيرةُ النبـيِّ كنتـم لنبيكـم، كذّبتْموني وصدّقَني النـاسُ، وأخرجتموني وآواني الناسُ، وقاتلتموني ونصرني النـاسُ، ثـم قال: هل وجدتّم ما وعدكم ربُّكم حقاً؟

وهذا دليل على أن الميتَ يسمعُ ويرى من يخاطبُه، لكنـه

لا يستطيعُ أن يردَّ عليه.

وحين أخذ المسلمون جثمانَ عتبةَ بن ربيعة يجرّونه ليُلقوه في القليب، نظر النبي في وجه أبي حذيفةَ بن عتبة فإذا هو كئيب قد تغيّر وجهه، فقال : يا أبا حذيفةَ لعلّك قد دخلك في شأن أبيك شيءٌ؟ فقال: لا، والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعِه، ولكنني كنت أعرفُ من أبي رأياً وحلِماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديَه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيتُ ما أصابه، وذكرتُ ماماتَ عليه من الكفر، أحزنني ذلك، فدعا له رسولُ الله ﷺ بخيرٍ، وقال له خيراً.

موقفُ الإسلام من الأسرى

بعد أن رجع المسلمونَ المنتصرون إلى المدينة المنـــوّرة يحملون الغنائمَ ويقودون الأسرى، ويشكرون الله عز وجل علـــى نصره و تأييدِه وقف النبيُّ ﷺ كعادته يستشيرُ أصحابَه ويناقشهم بشأنِ الأسرى وما هم فاعلون بهم؟ فقال: ما تَرونْ فـــي هـــؤلاء الأُسارى؟ فقال أبو بكر: يا رسولَ الله قومُك وأهلك استبقْهم لعـــلَّ الله أن يتوبَ عليهم. وقال عمرُ: كذّبوك وأخرجـــوكَ وقـــاتلوك، قدّمْهم فاضربْ أعناقَهم. وقال عبدُ الله بنُ رواحة: انظـــرْ وادياً كثير الحطب فأضرمْه عليهم. فقال العباسُ وكان بين الأســـرى: قُطعت رحمُك، فقال أناس: يأخذ بقول أبي بكر وقال أناس: يـــأخذ بقول عمر، وقال أناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحـــة. فقـــال النبيُّ ﷺ: إن الله ليُلينُ قلوبَ رجالٍ فيه حتى تكون ألْيَـــن مـــن اللبن، ويشدّدُ قلوبَ رجالٍ حتى تكون أشدَّ من الحجارة، مثلُك يـــا أبا بكر مثلُ إبراهيم عليه السلام إذ قال:[1] ﴿ فمن تبعني فإنـــه منّي ومن عصاني فإنّك غفورٌ رحيم ﴾. ومثلك يا أبا بكر مثـــلُ عيسى عليه السلام إذ قال:[2] ﴿ إن تعذّبْهم فإنـــهم عبـــادُك وإن تغفرْ لهم فإنّك أنت العزيزُ الحكيم ﴾.

---

(١) إبراهيم: ٣٦ (٢) المائدة: ١١٨

ومثلك ياعمرُ كمثل نوحٍ عليه السلام إذ قال:[1] ﴿ ربِّ لا تذرْ على الأرض من الكافرين دياراً ﴾. ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال:[2] ﴿ ربنا اطمسْ على أموالهم واشدُدْ على قلوبهم فلا يُؤمنوا حتى يرَوْا العذاب الأليم ﴾.

ثم اتجه عليه السلام نحو الأسرى وقال لهم: أنتمْ عالةٌ فلا ينفلتَنَّ أحدٌ إلا بفداء أو ضربةِ عنق. فأنزل الله عز وجل قوله:[3] **﴿ ماكان لنبي أن يكون له أسْرى حتى يُثْخنَ في الأرض تريدون عرضَ الدنيا واللهُ يريد الآخرةَ والله عزيزٌ حكيم ﴾.**

فقال رسولُ الله ﷺ: ﴿ إن كاد لَيصيبُنا في خلاف ابنِ الخطاب عذابٌ، ولو نزل عذابٌ ما أفلت إلا عمرُ... ﴾

وبعد هذا العتاب خيّر اللهُ عزّ وجلّ رسولَه بأنه إذا وضعتِ الحرب أوزارَها له أن يمُنّ وله أن يأخذ الفداءَ (فإما مناً بعدُ وإما فداءً).

قال القرطبي في تفسيره: قال ابن عباس رضي الله عنه: كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل، فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله عز وجل بعد هذا في الأسارى: (فإما مناً بعد وإما فداء).

أما موقفُ الإسلام بالنسبة لمعاملتهم قبل إصدارِ الحكم

---

(١) نوح:٢٦ (٢) يونس:٨٨

(٣) الأنفال:٦٧

فيهم، فإنه على غايةٍ من الرقـــة البالغـــة، والرحمـــة الزائـــدة، والمعاملةِ الطيبة فقـــال النبـــي ﷺ للمســلمين: ﴿ اســتوصوا بالأسارى خيراً ﴾.

قال أبو عزيز أخو مصعبِ بنِ عمير، وكان أســيراً يــوم بدر: كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكــانوا إذا قدّموا غداءهم وعَشاءهم خصّوني بالخبز، وأكلــوا التمــر ــ وقد كان الخبزُ أحبَّ وأشهى إلى القوم من التمر لكثرتِـــه وقلـــةِ الخُبز ــ لوصيةِ رسول الله ﷺ إيّاهم بنا، ما تقعُ في يـــدِ رجُـــلٍ منهم كسرةُ خبزٍ إلا نفحَني بها.قال: فأستحي فأردّها على أحدهم، فيردّها عليَّ ما يمسُّها.

ورويَ أنه لما كانت أُسارى بدر وفيهم العبـــاسُ، فســـهر النبيُّ ﷺ ليلتَه. فقال له بعضُ أصحابه: ما يُسهرك يا نبـــيَّ الله؟ قال: أنينُ العباس. فقام رجلٌ من القـــوم فـــأرخى مـــن وثاقِـــه. فقال رسول الله ﷺ: ما لـــي لا أســـمع أنيـــن العبـــاس؟ فقـــال رجلٌ من القوم: إني أرخيتُ مـــن وثاقـــه شـــيئا فقـــال: فـــافعلْ ذلك بالأسارى كلِّهم.

هذا موقفُ الإسلام من الأسرى، وهذه معاملتُه لـــهم. أدبٌ عظيمٌ يتأدّبُ به المسلمون، وخُلقٌ كريمٌ يغمرُ به حتى الأعـــداء، ورحمةٌ واسعة تشمل الجميع.

ذكر أشهر من أسر يوم بدر

١ــ العباسُ بنُ عبدِ المطلب أسره أبو اليَسَر كعــــبُ بــنُ عمرٍو، وكان رجلاً قصيراً، وكان العباسُ ضخماً طويلاً، فلمـــا جاء به أبو اليسَر إلى النبيِّ ﷺ قال له: ﴿ لقد أعـــانكَ عليـه ملَكٌ ﴾.

وقد اختُلف في وقت إسلام العبّاس، فقيل أسلم قبل بـــدر، ولذلك قال النبي ﷺ: ﴿ من لقيَ العباسَ فلا يقتلْه فإنــه أُخــرج كرهاً ﴾.

وعن ابن عباس أنّ رسولَ الله ﷺ قال يــوم بــدر ﴿ إن أُناساً من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كرهــاً لا حاجــة لــهم بقتالنا، فمن لقيَ أبا البختريِّ فلا يقتلْه، ومن لقي العباسَ فلا يقتلْه فإنه إنّما أخرج مُستَكرهاً ﴾.

وقيل إنه أسلم حين أُسر يوم بدر ــ وقيل عــام خيــبر ــ واللهُ أعلمْ وكان العباسُ أكثرَ الأُسارى فداءً، لأنه كان مُوسِـــراً، فقد افتدى نفسه بمائةِ أوقيّةٍ ذهباً. روى البخاريُّ عن أنــسِ بــنِ مالك، أنّ رجالاً من الأنصار استأذنوا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: يــا رسولَ الله ائذنْ لنا فلنتركْ لابنِ أختِنا عباسٍ فداءه فقــال: لا والله لا تذرون دِرْهما.

وقد قيل : إن فداء كلٍ واحدٍ من الأُسارى كان أربعين أوقيَةً، إلاّ العباس قال عنه النبيُّ ﷺ: ﴿ أضعِفوا الفداء على العباس ﴾.

وجاء عن ابن اسحاق أن العباس قال: يارسول الله، قد كنتُ مسلماً فقال رسولُ الله ﷺ: اللهُ أعلمُ بإسلامك فإن يكنْ كما تقول فالله يَجْزيك بذلك، فأما ظاهرُ أمرِك فكان علينا فافدِ نفسَك وابنَيْ أخويْك نوفلَ بنَ الحارث بن عبد المطلب وعقيلَ بنَ أبي طالب وحليفَك عتبةَ بن عمرو أخا بني الحارث بن فهر، قال: ماذاك عندي يا رسول الله. قال: فأين المالُ الذي دفنتَه أنت وأمُّ الفضل فقلت لها إن أُصبتُ في سفري هذا فهذا المال لبنَيَّ الفضلِ وعبدِ الله وقُثَم؟ فقال: يا رسولَ الله، إني لأعلمُ أنّك رسولُ الله، إن هذا الشيْء ما علمه غيري وغيرُ أم الفضل، فاحسُب لي يا رسولَ الله ما أصبتم مني عشرين أوقيةً من مال كان معي، فقال رسولُ الله ﷺ: لا، ذاك شيءٌ أعطاناه اللهُ منك، ففدى نفسَه وابني أخويه وحليفَه، وأنزل الله فيه:[1]

﴿ ياأيُّها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم اللهُ في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً ممّا أُخذ منكم ويغفرْ لكم والله غفورٌ رحيمٌ ﴾.

---

(١) الأنفال: ٧٠

وفي صحيح مسلم أنه لما قدم على النبي ﷺ مال من البحرين قال له العباس: إني فاديتُ نفسي وفاديتُ عقيلاً، فقال له رسول الله ﷺ: خذْ، فبسط ثوبَه وأخذ ما استطاع أن يحملَه....

وفي غير الصحيح. فقال العباس: وهذا خيرٌ ممّا أُخذ مني وأنا بعدُ أرجو أن يغفرَ الله لي، قال العباس: وأعطاني زمزمَ وما أُحب أن لي بها جميعَ أموالِ أهل مكةَ...... تفسير القرطبي

٢ـ أبو العاص بنُ الربيع زوجُ زينبَ بنتِ رسولِ الله ﷺ، أسره خراش بنُ الصمّة، وقيل: أسره عبد الله بن جبير وحين بعثَ أهلُ مكة في فداء أسراهم بعثت زينبُ بنتُ رسولِ الله ﷺ في فداء زوجها أبي العاص بمالٍ، وبعثت فيه بقلادة لها وكانت لأمّها خديجةَ رضي الله عنها، وقد قدّمتْها خديجةُ هديةً لزينبَ يوم زفافِها على أبي العاص، فلما رأى النبي ﷺ القلادةَ عرفها ورقّ لها رِقّةً شديدةً وقال: ﴿ إن رأيتمْ أن تُطلقوا لها أسيرَها وتردوا عليها الذي لها ﴾. فقالوا: نعمْ. فأطلق النبي ﷺ سراحَه وأخذ عليه عهداً أن يُخليَ سبيلَ زينبَ، ويبعثَ بها إلى المدينة فلما قدم أبو العاص مكةَ قال لها تجهّزي فالْحقي بأبيك، وخرج معها كنانةُ بنْ الربيع أخو أبي العاص. فسمع أهلُ مكة بخروجِها، فتبعها هبارُ بن الأسود ونافعُ بنْ عبد القيس الفهريّ، وما إن وصل إليها هبار حتى أخذ يروّعُها بالرمح وهي في

هودجِها، فتصدّى له كنانةُ بن الربيع ونثر نبلَه،وأخذ قوسَه وقال: واللهِ لايدنو مني رجلٌ إلا وضعتُ فيه سهماً، وأقبل أبو سفيان في أشرافِ قريش فقال: يا هذا، أمسكْ عنا نبلَك حتى نكلّمك، فتوقف كنانةُ، فدنا منه أبو سفيان فقال: إنك لم تصنعْ شيئاً، خرجتَ بالمرأة على رؤوس الناس، وقد عرفتَ مصيبتَنا التي أصابتنا ببدرٍ فتظن العربُ وتتحدث أن هذا وهنٌ منا وضعفٌ خروجُك إليه بابنته على رؤوس الناس من بين أظهرِنا. ارجعْ بالمرأةَ فأقمْ بها أياماً، ثم سُلَّها سلاً رفيقاً في الليل فألحقْها بأبيها، فلعمري ما لنا بحبسِها عن أبيها من حاجةٍ، وما لنا في ذلك الآن من ثؤرةٍ ـ ثأر ـ فبما أصاب منا..... ففعل كنانةُ ما طلب منه أبو سفيان، فلما مرَّ يومان أو ثلاثةٌ سلّها كنانةُ فانطلقَ حتى قدمَ بها على رسول الله ﷺ. فأقامتْ عنده بالمدينة، وأقام أبو العاص بمكةَ حيث فرّق بينهما الإسلامُ حتى إذا كان قبيل الفتح انتدبه رجالٌ من قريش للتجارةِ وقد أمنوه على أموالهم، وكان رجلاً مأموناً، فلمّا فرغ من تجارته في الشام ورجعَ إلى مكة انقضّتْ عليه سريةٌ لرسول الله ﷺ، فأصابوا ما معه، وأعجزهم هارباً، فلما كان الليلُ دخل على زينبَ فاستجار بها، فأجارتْه، فلمّا خرج رسولُ الله ﷺ إلى صلاة الصبح صرختْ زينبُ وقالت: أيّها الناسُ إني قد أجرت أبا العاص بنَ الربيع، فلما سلّم رسولُ الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس، فقال: أيُّها

الناس هل سمعتم ما سمعتُ؟ قالوا: نعم، قال: أما والـــذي نفــسُ محمد بيده ما علمتُ بشيء من ذلك حتى سمعتُ ما سمعتم، إنـــه يُجير على المسلمين أدناهم، ثم دخل على ابنتِه، فقال: أيْ بنيّـــةُ أكرمي مثواه، ولا يخلُصَنَّ إليك، فإنك لا تَحِلّين له.

ثم بعثَ إلى أفراد السرية فقال لهم: إنّ هذا الرجـــلَ منـــا حيث قد علمتُم وقد أصبتم له مالاً، فإن تُحسنوا وتَـــردُّوا عليـــه الذي له، فإنا نُحبُّ ذلك وإن أبيتم فهو فيءُ الله الذي أفاء عليكـــم، فأنتمْ أحقُّ به فقالوا: يا رسولَ الله، بل نردُّه عليـــه، فـــأخذه أبـــو العاص إلى مكّةَ وردّه إلى أصحابه، ثم قال: يا معشـــرَ قريـــش، هل بقي لأحد منكم عندي مالٌ لم يأخذْه؟ قـــالوا: لا فجـــزاكَ الله خيراً، فقد وجدْناك وفياً كريماً، قال: فأنا أشهدُ أن لا إلـــه إلا الله، وأن محمداً عبدُه ورسوله، والله مامنعني من الإســـلام عنـــده إلا تخوّفُ أن تظنوا أني إنما أردت أن آكُلَ أموالَكم، فلمّا أدّاهـــا الله إليكم وفرغتُ منها أسلمتُ، ثم خرج من مكة حتى قـــدم علـــى رسول الله ﷺ فردَّ عليه زينبَ بنكاحٍ جديدٍ، لأن الإسلام قد كـــان فرّقَ بينهما بنص قولِه تعالى: **﴿ لاهُنَّ حِلٌّ لـــهم ولاهم يحلّـــون لهن ﴾**.

٣ـــ عقبة بن أبي مُعَيط. وكان من أكثر المشركين إيـــذاءً للمسلمين. وقد أسره عبد الله بن سلِمة.

٤ـ النضرُ بن الحارث، وكان لا يقل عن عقبة بالشّراسة وسوءِ الخلق، وفي الطريق أمر النبيُّ ﷺ عليَّ بن أبي طالب أن يقتل النضرَ فقتله في مكان يقال له ـ الصفراءُ ـ وحين تلقت قُتيلةُ أختُ النضرِ ـ أو بنتُه وهو الأصح ـ نبأَ مقتلِه بكتْ عليه بكاءً شديداً، وقالت ابياتاً من الشعر تضمّنت حزنَها و تألُّمها عليه، جاء فيها:

هل يسمعَني النضرُ إن ناديتهُ	أم كيف يسمعُ ميتٌ لا ينطِقُ
أمحمدٌ يا خَير ضنء كريمةٍ	في قومها والفحلُ فحلٌ مُعرق
ما كان ضركَ لو مننتَ وربّما	منّ الفتى وهو المغيظُ المُحَنَقُ
أو كنت قابلَ فديةٍ فلينفقن	بأعز ما يغلو به ما يُنفق
فالنضرأقربُ من أسرت قرابةً	وأحقُّهم إن كان عَتق يُعتق
ظلّت سيوفُ بني أبيه تنوشهُ	لله أرحامٌ هناك تُشقق
صبراً يقادُ إلى المنية متعباً	رسفَ المقيّدِ وهو عانٍ موثق

الضنء: الأصل ـ المعرق: الكريم. المعنى: أمحمّدُ يا خيرَ أصلٍ وأكرمَ نسبٍ. ما ضرّكَ لو مننتَ على النضر فعفوتَ عنه وأطلقتَ سراحَه، وأخذت فداءه أغلى وأثمن ما فدي به حسيبٌ وشريفٌ.

يُروى أن رسول الله ﷺ حين سمعَ هذه الأبياتَ، قال لو بلغني هذا قبل قتِله لمننتُ عليه.

فما أعظمَ هذه الأخلاقَ! وما أوسعَ هذا القلبَ! وما أرحبَ هذا الصدرَ! وما أشمل هذه الرحمة! صلى عليك الله يا سيّدي يا رسولَ الله يا من بعثك الله رحمة للعالمين، يا من كنت رحمةً للكبير والصغير، وللمؤمن والكافر، وللبَرّ والفاجر، يامن قلت: إنما أنا رحمةٌ مهداة . وقال فيك رب العزة عز وجل.

﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفسِكم عزيزٌ عليه ما عنِتمْ حريصٌ عليكم بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيم ﴾.

وتابع النبي ﷺ وأصحابُه مسيرَهم يقودون الأسرى حتى بلغوا موضعاً يقال له عرقُ الظبية أمر النبيُّ ﷺ عاصمَ بن ثابت أن يقتلَ عقبةَ بنَ أبي مُعيط، فقال عقبة لرسول الله ﷺ: فمن للصّبيةِ يا محمّدُ؟ قال: النارُ، فلما دنا منه عاصم بن ثابت ليقتلَه قال: يا معشرَ قريشٍ علامَ أقتلُ من بين مَن ههنا؟ قال على عداوتك اللهَ ورسولَه ثم دنا منه فقتلَه. وقيل الذي قتله عليُّ ابن أبي طالب أيضاً.

قال ابن كثير في البداية والنهاية: (كان هذا الرجلانِ من شر عبادِ الله وأكثرِهم كفراً وعناداً وبغياً وحسداً وهجاءً للإسلام وأهلِه لعنهما الله وقد فعل).

٥ــ أبو عزيز زرارةُ بن عمير أخو مصعب بن عمير. أسره أبو اليسر.

وكان أبو عزيز صاحبَ لواءِ المشركين ببدر بعد النضر

ابن الحارث، وقد مرّ به أخوه مصعبٌ وأبو اليسر يأسره، فقال مصعب: شدَّ يديك به، فإن أمّه ذاتُ متاع، لعلها تفديه منك، فقال له أبو عزيز: ياأخي، هذه وصاتُك بي؟ فقال له مصعب: إنه أخي دونك، فسألتْ أمُّه عن أغلى ما فُدي به قُرشيّ، فقيل لها: أربعةُ آلاف درهمٍ، فبعثت بأربعةِ آلاف درهم ففدته بها......

وقد أسلم أبو عزيز هذا وله سماعٌ وصحبةٌ. كما في الإصابة والاستيعاب.

٦ــ أبو وَداعةَ بنُ ضبيرة السهميّ، فقال رسولُ الله ﷺ: إنّ له بمكة ابناً كيساً تاجراً ذا مال، وكأنّكم به قد جاءكم في طلبِ فداءِ أبيه، فلما قالت قريش لا تعجلُوا بفداء أسراكم، لا يأربُ عليكم محمدٌ وأصحابُه، قال ابنُه المطّلبُ بن أبي وداعة: صدقْتم، لا تعجلوا. وانسلّ من الليل فقدِم المدينةَ، ففدى أباه بأربعةِ آلافِ درهم.

٧ــ سهيل بن عمرو.أسره مالكُ بنُ الدخشم وقال مفتخراً:

أسرتُ سُهيلاً فلا أبتغي	أسيراً به من جميع الأمم
وخندفُ تعلم أن الفتى	فتاها سهيل إذا يُظلّم
ضربت بذي الشفر حتى انثنى	وأكرهت نفسي على ذي العلم

الأعلم: المشقوق الشفة السفلى، وقد كان سهيلٌ كذلك. وقد قال عمرُ بن الخطاب لرسول الله ﷺ: يا رسولَ الله، دعْني أنزع

ثنيتي سهيلِ بنِ عمرو، ويدلع لسانه ـ يخرج ـ فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً، فقال رسول الله ﷺ: لا أمثّل به فيمثّل الله بي وإن كنت نبياً.

رُوي أن رسول الله ﷺ قال لعمر: ﴿ إنه عسى أن يقوم مقاماً لاتذمّه ﴾. وصدق رسول الله ﷺ فقد أسلم سهيلُ بن عمرو وكان له موقفٌ مشرف بعد وفاةِ رسول الله و ارتدّ من ارتدّ من العرب، ونجم النفاقُ بالمدينة وغيرِها، فقام خطيباً وثبت الناس على دينهم.

وقد جاء مكرزُ بن حفص فحبس نفسَه مكان سهيلٍ ريثما يأتيهم بفدائه، قال مكرز في هذا مفتخراً:

فديت بأذوادٍ ثمانٍ سبا فتىً ... ينال الصميمَ غرمُها لا المواليا
رهنت يدي والمالُ أيسر من يدي ... عليّ ولكني خشيت المخازيا
وقلتُ سهيلٌ خيرُنا فاذهبوا به ... لأبنائنا حتى نُديرَ الأمانيا

٨ ـ عمرو بنُ أبي سفيان. أسره عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقيل لأبيه أبي سفيان بن حرب: افدِ عمراً ابنَك، فقال: أيجتمع على دمي ومالي! قتلوا حنظلة، وأفدي عمراً! دعوه في أيديهم يُمسكوه ما بدا لهم.

وكان سعدُ بنُ النعمان بنِ أكال قد خرج معتمراً، ولم يكن يعتقدُ أن أحداً يعترض طريقه أو ينال منه سوءاً وقد خرج

معتمراً ولكن أبا سفيان فعل ذلك ولم يرعَ حرمةَ المعتمرِ، فعـــدا عليه بمكة فحبسه بابنه عمرو. وأنشأ يقول:

أرهط بن أكّال أجيبوا دعـــاءه تعاقدتم لاتسلموا السيّد الكهـــلا

فإنّ بنـــي عمـــرو لئامٌ أذلـــةٌ لئن لم يكفّوا عن أسيرِهم الكبّلا

فأجابه حسان بن ثابت فقال:

لو كان سعدٌ يوم مكّة مُطلَقاً ـــ لأكثر فيكم قبل أن يُؤسَر القتلا

بغضبٍ حُسامٍ أو بصفراءَ نبعةٍ تحن إذا ما أُنبضتْ تحفز النبلا

العضب: السيف، الصفراء: القوس، النبع: شـــجر تصنـــع منه القسي، وتحن: أي يصوت وترها، والإنبـــاض: أن يحـــرك وتر القوس ويُعدّ. تحفز النبل: تقذف به وترميه.

فأتى بنو عمرو بنِ عوف وهم ذوو ســـعدِ بـــن النعمـــان فطلبوا من رسولِ الله ﷺ أن يُعطيَهم عمرَو بـــنَ أبـــي ســـفيان فيكفّوا به صاحبَهم سعدَ بن النعمان ففعل رسول الله ﷺ، فبعثـــوا به إلى أبي سفيان الذي أطلق سبيلَ سعدٍ.

وأبو سفيان شخصيةٌ معروفة وقد أسلم يوم الفتح، أما ابنُـــه عمرٌو المذكور فلم أجد له إسلاماً.

٩ـــ أبو عزّة. واسمه عمرُو بنُ عبد الله بن عثمـــان بـــن أهيب، فكلّم رسولَ الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، لقد عرفتَ ماليَ مِنْ مال، وإني لذو حاجة، وذو عيال، فامنُنْ عليّ، فمنَّ عليـــه،

وأخذ عليه عهداً، ألا يظاهرَ عليه أحداً. فقال أبو عـزة يمـدح رسول الله ﷺ، ويذكرُ فضله:

مَن مبلـغ عنـي الرسول محمـداً ... بأنك حـقٌ والمليك حميـد
وأنت امرؤ تدعو إلى الحق والهدى ... عليك من الله العظيم شهيـدُ
وأنـت امـرؤ بُوِّئت فينـا مبـاءةً ... لها درجاتٌ سهلةٌ وصـعودُ
فإنـك مـن حـاربـتَـه لمحـارَب ... شقيٌّ ومـن سالمتَه لسـعيدُ
ولكـن إذا ذكِّـرت بـدراً وأهـلـه ... تأوّبُ مابي حسرةٌ وقعـود

ولكن أبـا عـزة هذا نقضَ ما كان عاهـد عليه رسـول الله ﷺ وشارك يوم أحد في قتال المسلمين فوقع أسيراً أيضـاً، فطلب من النبي ﷺ أن يمنَّ عليه أيضاً. فقال لـه النبـي ﴿ لا أدعك تمسح عارضيك وتقول خدعتُ محمداً مرتين ﴾ ثم أمر به فضربت عنقه وفيه أيضاً قال النبي ﷺ ﴿ لا يُلدغ المؤمنْ مـن جُحرٍ مرتين ﴾.

١٠ـ المطلب بن حنطب بن الحارث: أسره أبـو أيـوب الأنصاري خالد بن زيد، وكان المطلب لبعض بني الحارث بـن الخزرج فتُرك في أيديهم حتى خلّوا سبيله.

١١ـ صيفيُّ بن أبي رفاعة بن عابد: تـرك فـي أيـدي أصحابه، فلم يأتِ أحدٌ في فدائه، فأخذ عليه أصحابُـه عـهداً أن يبعث إليهم بفدائه وخلّوا سبيلَه، فلم يفِ لهم بشيء.

١٢ــ وهْب بن عمير بن وهب: أسره رفاعةُ بن رافع.

منَّ عليه رسولُ الله ﷺ حين جاء أبوه عميرُ بـــن وهـــب إلى رسول الله ﷺ مُسلماً فقال النبي لأصحابه: فقّهوا أخاكم فـــي دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيرَه. فكان نتيجة هذا العفـــو الكريم، والخلق العظيم، والصفح الجميل أن دخل معظم الأسـوى في الإسلام عن رضىً وقناعة، فكانوا أهلَه وخاصتَه والمدافعيـن عنه، ورافعي رايته... وهذا مايفسر بعدَ نظر الصديق رضـــي الله عنه، وتمحيصَه للأمور ويكشف عـــن تـــألق حكمتـــه وتوقـد بصيرته، وإرهاف حسه، وشفافية روحِه حين أشار على رســول الله ﷺ بأخذ الفدية، وإطلاق سراحِ الأسرى حيث قال: يا نبـــيَّ الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإنـــي أرى أن تـــأخذ منهم الفديةَ فيكون ما أخذناه منهم قوةً لنا على الكفار، وعســى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عَضُداً فكان الأمر ــ كما أشار أبو بكر.

وهذا الرأيٍ للصديق رضي الله عنه أيّده الله عز وجل بــل زاده عليه حينما خير رسول الله ﷺ فيما بعد بأنه إذا وَضعـــتِ الحربُ أوزارَها له أن يمنَّ وله أن يأخذ الفداء. (فإما مناً بعـــدُ وإما فداء).

ذكْرُ أشهرِ مَن قُتل من المشْركين

وهمْ أئمّةُ الكفر، وأربابُ الضّلال، ودعاةُ الشرّ الذين آذَوْا النبيَّ ﷺ، وتآمروا على قتله ووأدِ دعوتهِ وتفنّنوا في تعذيبه وتعذيب أصحابِه منهم.

١ ــ عدُوّ الله: أبو جهل بنُ هشام. وقد مر معنا أنّ معاذَ ابنَ عمرو بن الجموح تصدىّ له أثناء المعركة فضربه ضربةً قطعت نصفَ ساقِه ثم مرّ به معوّذُ بنُ عفراءَ فضربه ضربةً أثبتَتْه.

وبعد انتهاء المعركة أمر النبيَّ ﷺ أن يُلتمس أبو جهل في القتلى، فمر به عبدُ الله بن مسعود فوجده بآخرِ رمقٍ فوضع رجليْهِ على عُنُقه وقال له: هل أخزاك الله ياعدوّ الله؟ قال: وبماذا أخزاني، أعارٌ على رجلٍ قتلتموه؟ أخبرْني لمن الدائرةُ اليوم؟ قال: لله ورسولِه، ثم قال لابن مسعود وكان قد وضع رجلَه على عنقه: لقد ارتقيتَ مرتقىً صعباً يا رُوَيْعيَ الغنم، ثم اختزّ ابنُ مسعود رأسَه، وجاء به إلى رسول الله ﷺ، فقال: يارسول الله هذا رأسُ عدوٍّ الله أبي جهل فقال ﷺ: آللهِ الذي

لاإله إلا هو؟ فردّدها ثلاثاً، ثم قال: اللهُ أكبر، الحمـــــدُ لله الـــذي صدق وعده، ونصر عبدَه، وهزم الأحزاب وحده، انطلقْ أرنِيـــه، فلما رآه، قال: هذا فرعونُ هذه الأمة.

٢ـــ الأسود بنُ عبد الأسدِ المخزوميُّ: وهو أخو أبي سلمة رضي الله عنه عبدِ الله بن عبد الأسد الصّحابيِّ الجليل.

والأسودُ هذا، قيل: إنه أولُ من يأخذ كتابه بشـــمالِه يـــوم القيامةِ لأنه بادر النبيَّ ﷺ بالحرب يومَ بدر.

وقد روي أنه يمدُّ يدَه ليأخذَ كتابَه بيمينِه فيجذبُه ملكٌ فيخلعُ يدَه فيأخذه بشِماله من وراء ظهرِه، لعنه الله وجعل جهنم مثواه.

٣ـــ عتبةُ بن ربيعة.

٤ـــ شيبةُ بن ربيعة، وهو أخو عتبةَ.

٥ـــ الوليدُ بنُ عتبةَ، وهؤلاء الثلاثة قُتلوا في المبارزة مـــع عليٍّ وحمزةَ وعبيدةَ بنِ الحارث.

٦ـــ أميّةُ بن خلف، وهو الذي كان يعذّب بلالاً.

٧ـــ عقبةُ بن أبي مُعيط، وكان خليلاً لأمية بنِ خلف.

٨ـــ النضر بن الحارث: كان من شياطين قريش، وممـــن يؤذي رسولَ الله ﷺ ، وينصبُ له العـــداوةَ. وكـــان قـــد تعلّـــم أحاديثَ ملوكِ الفرس، وأحاديثَ رُستمَ واسفنديار بســـبب كـــثرة

أسفاره واجتماعِه بأهل المشرق. وكان متكــبرّاً صلِفـاً لدرجـة الغرور، وكان يقول: سأُنزل مثل ما أنزل اللهُ.

وكان إذا جلس رسولُ الله ﷺ مجلساً يذكّر المسلمين بالله، ويخوّفهم أن يصيبهَم ما أصاب منْ قَبلهم من الأمم. جلس النضرُ مكانَ رسولِ الله ﷺ ، وقال للقومِ: أنا ــ والله ــ يامعشرَ قريـش أحسنُ حديثاً منه، فهلمّ إليّ فأنا أُحدثكم أحسنَ من حديثه.

وفيه أنزل اللهُ عز وجلّ قولَه: (١) ﴿ **إذا تتلى عليه آياتُنـا قال أساطيرُ الأوّلين** ﴾.

٩ــ أبو البختريّ بنُ هشام: واسمه العاص بنُ هشام، وهذا لـم يكن مبغضاً لرسول الله ﷺ ، ولم يتعرّضْ لأحد من الصحابـة بسوء. بل كانت له مواقفُ إنسانيةٌ شهمةٌ فكان لا يـؤذي النبـيَّ ﷺ ، ولا يبلغُه عنه شيءٌ يكرهه، ولقد لعب دوراً كبيراً وهامـاً في نقض الصحيفة الظالمةِ التي كَتبتْ قريش على بنـي هاشـم وبني المطلب، لذلك لم أذكرْه مع أبي جهل وعتبةَ وعقبة وأميـة وغيرِهم، وهو الذي قـال عنـه النبـيُّ ﷺ أثنـاءَ المعركـةِ

(١) القلم: ١٥

﴿ ومن لقي أبا البختريّ بنَ هشام بنِ الحارث بنِ أسد فـلا يقتلْه ومن لقي العباسَ بن عبد المطلب عمّ رسـول الله ﷺ فـلا يقتلْه ﴾.

فلقيه المجذَّر بنُ زياد البلويُّ، فقال له: إن رسـول الله ﷺ قـد نهانا عن قتلِك، قال أبو البختريّ: وزميلي، وهو الذي كان راكبـاً معه على بعيرٍ ــ فقال المجذَر: لا والله، مانحن بتاركي زميلِـك، ماأمرنا رسولُ الله ﷺ إلاّ بك وحدك فقال: لا والله، إذن لأموتَـنَّ أنا وهو جميعاً، لاتتحدّثُ عني نساءُ مكة أنـي تركـت زميلـي حِرْصاً على الحياة. ثم اقتتلا فقتله المجذَر فأتى رسـول الله ﷺ يعتذرُ إليه فقال: والذي بعثك بالحقّ لقد جهدْتُ عليه أن يستأسـرَ فآتيك به، فأبى إلا أن يقاتلَني فقاتلته فقتلتهُ فلم يراجعْه الرسـولُ ﷺ في ذلك ولم يلُمْه.

١٠ ــ عليّ بنُ أمية بن خلف: قُتل مع أبيه حين لاحقـهما بلالُ بن رباح، وقد مر معنا ذلك. وعلي بنُ أمية هذا واحدٌ مـن الفتية الذين نزل فيهم قولُه تعالى:[١] ﴿ إنَّ الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسِهم قالوا فيمَ كنتُم قالوا كنا مسـتضْعفين فـي الأرض قالوا ألم تكن أرضُ الله واسعةً فتهاجروا فيها فـأولئك مـأواهم

(١) الآية: ٩٧

جهنم وساءت مصيراً ﴾.النساء

وبقية الفتية المذكورين في الآية هم:

١١ــ الحارثُ بن زمعةَ بنِ الأسود بن عبد المطلب بن أسد.

١٢ــ أبو قيس بنُ الفاكه بن المغيرة.

١٣ــ أبو قيس بنُ الوليد بن المغيرة.

١٤ــ العاصُ بنُ منبه بن الحجاج.

وهؤلاء كانوا قد أسلموا بمكة فلما هاجر رسولُ الله ﷺ إلى المدينة حبسهم آباؤهم وعشائرهم، ومنعوهم من الهجرة، وفتنوهم عن دينِهم ثم خرجوا مع قومِهم إلى بدرٍ فقُتلوا جميعاً.

١٥ــ نوفلُ بنُ خويلد بن أسد، ويُقال له ابنُ العدوية، وهو الذي قَرن أبا بكر الصديقَ، وطلحةَ بن عبيد الله حين اسلما في حبل، فكانا يُسمَّيان القرينين لذلك، ونوفلٌ هذا كان من شياطين قريش.

١٦ــ العاصُ بن هشام بن المغيرة. أخو أبي جهل بن هشام.

هؤلاء هم أشهرُ من قُتل من فرسان قريش يوم بدر وقـــد جاءوا بحدّهم وحديدهم ليطفئوا نورِ الله بأفواههم، وخرجوا مـــن ديارهم بطراً ورئاءَ الناس ويصدون عن ســبيل الله فأكبّــهم اللهُ بغيظهم، ورد سهامَهم إلـــى نحورهـــم، وأراح المســلمين مـــن شرورهم، وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى، وكلمةُ الله هي العليا، لتكون رايةُ التوحيد خفاقةً منتصرة سائرة فوق هامـــات الدنيـــا حتى يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها.

ذِكْر مَن استُشهد مِن المُسلمين

إذا كان المشركون قد خرجوا إلى بدرٍ بطراً ورئاءَ الناس ويصدّون عن سبيل الله مزهوّين بالكِبْر والغرور والغطرسةِ. فإن المسلمين كانوا على العكس من ذلك تماماً. خرجوا بعد أن عاهدوا قائدَهم المصطفى ﷺ على خوضِ البحر، وتحدّي الأهوال وتذليل الصعاب على الرغم من قلة عددِهم وتفوُّق عدوهم. خرجوا طلباً للشهادة ونيلِ رضوان الله عزّ وجل. فكانت النتيجةُ أن نصرهم اللهُ نصراً مبيناً. ومكّن لهم في الأرض، وكسر شَوْكةَ عدوِّهم وحطم كبرياءَهم. وجعلهم ينسحبون من أرض المعركةِ متوّجين بالخزي والعار بعد أن قُتل منهم سبعون فارساً وأُسر سبعون آخرون. في حين لم يقتلْ من المسلمين سوى أربعة عشر رجلاً ثمانيةٌ من الأنصار وستةٌ من المهاجرين وهم:

١ــ مهجع مولى عمرَ بن الخطاب: رُمي بسهم فقُتل فكان أوّل شهيدٍ من المسلمين.

٢ــ حارثةُ بنُ سُراقةَ: أصيبَ بسهمٍ وهو يَشْرب من الحوض فقُتل.

٤ــ عــبيدةُ بن الحارث: وقد مرّ أنه قُتل في مبارزتِه مع عتبةَ بنِ ربيعة.

٥ــ٦ عوف ومعّوذُ ابنا الحارث: وهما ابنا عفراء.

٧ــ عميــرُ بنُ أبي وقاص: أخو سعدِ بن ابي وقاص. وقد استَصْــغره النــبيُّ صــلى الله عليه السلام يومَ بدر فردّه، فبكى عميــر، فــلما رأى النبي عليه السلام بكاءه أذِن له في الخروج، فقُتل وهو ابنُ ستَ عشرةَ سنةً.

٨ــ ذو الشــمالَيْنِ: واسمه عميرُ بن عبد عمرو بن نضلة، قــدم أبوه مكة فحالف عبدَ الحارث بنَ زهرة وزوّجه ابنتَه نعمى فولــدت له عميــراً ذا الشــمالين، ولقب بذي الشّمالين لأنه كان أعسرَ، ثم شهد بدراً وقُتل فيها شهيداً. قتلَهُ أسامةُ الجشمي.

٩ــ يــزيدُ بنُ الحارث: ويقال ابن فسحم وهي أمُّه، وهو الــذي آخى رســول الله صــلى الله عــليه وسلم بينه وبين ذي الشمالين. قتله طعيمةُ ابن عدي.

١٠ــ رافع بن المعلّى، قتله عكرمة بن أبي جهل.

١١ــ ســعدُ بــنُ خيثمة: كان له من قبل المعركة موقفٌ طــريف، وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استنهض أصــحابَه إلى عير قريش قال له أبوه خيثمة: إنه لابدّ لأحدنا أن يقيــمَ فآثِرْني بالخروج وأقمْ أنتَ مع نسائنا، فأبى سعدٌ وقال: لو

كـــان غيـــرَ الجنة آثرتُك به إني لأرجو الشهادةَ في وجهي هذا. فاســـتَهما فخـــرج سهمُ سعدٍ الذي ذهب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر فقُتل شهيداً.

١٢ــ صـــفوانُ بن بيضاءَ: والبيضاء أمُّه، وهو أخو سهلٍ وسهيلٍ ابني وهب. قتله طعيمةُ بن عدي.

١٣ــ عـــاقلُ بن البكير: قيل كان اسمه غافلاً فغيّره النبيُّ عـــليه السلام وأسماه عاقلاً، ويُروى أنّه أولُ من بايع النبيَّ عليه السلام في دار الأرقم فكان من السابقين الأولين.

١٤ــ مبشّـــر بنُ عبد المنذر بن زنير: خرج مع أخيه أبي لبابةَ إلى بدر فقُتل فيها شهيداً.

فليســـمعْ شـــبابُ اليـــوم من طلاب العبث، وعشاق اللهو، وروّاد الخمـــور، إلى شبابٍ خرجوا من بيوتِهم وأحضانِ آبائهم للقـــتال ونيـــل الشـــهادة لا لرحلةٍ، ولا لنزهةٍ. خرجوا ليرسُموا صـــوراً رائعـــة في التضحية والفداءِ، وليُعْطوا دروساً خالدة في المجـــد والإبـــاء مـــنهم شابٌّ في عمر الورد يرى فارقَ السن، وفـــارقَ الجسم بينه وبين غيره من المجاهدين، ثم لايمنعُه ذلك من أن يكون كفؤاً لهم في مطالب الشهادة وغايات المجد.

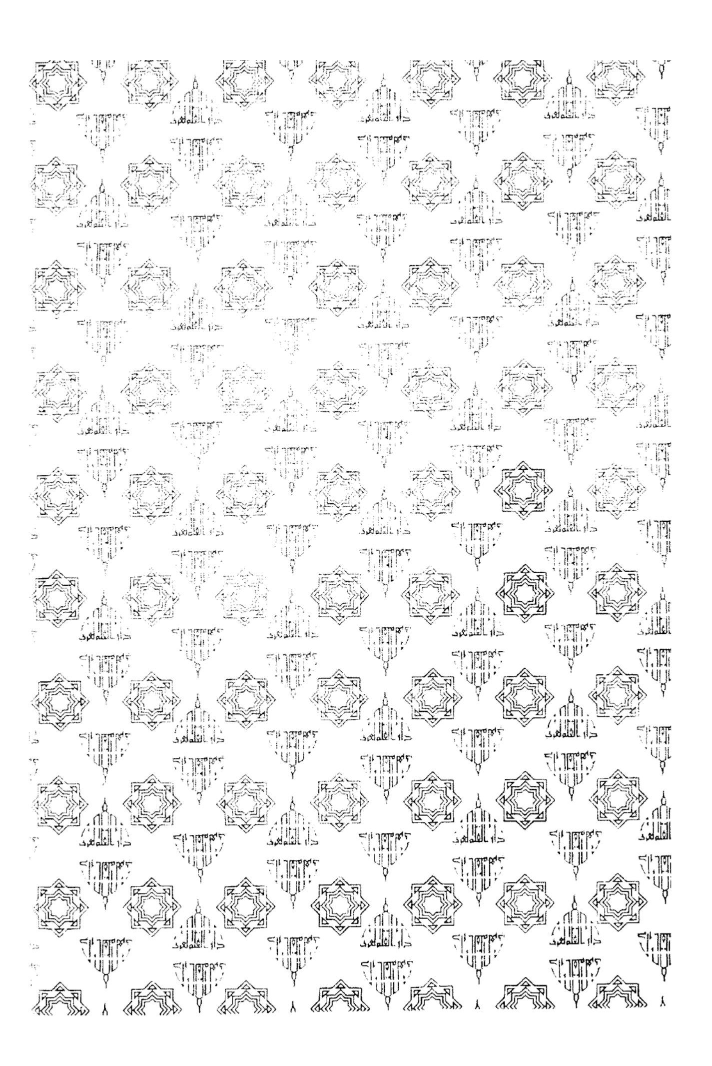
وحيـــن ردّه النـــبي صلى الله عليه وسلم لصغرِ سنه بكى فأشفق لبكائه فأجازَه، فقاتل حتى قُتل ونال الشهادة.

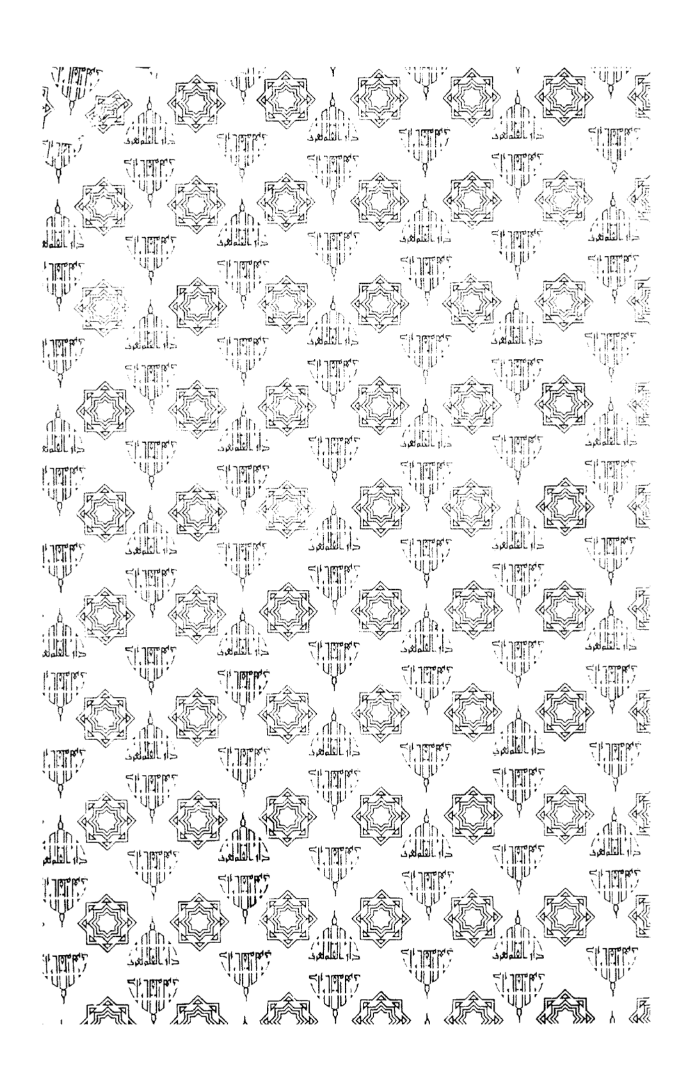
وليس هذا المشهدُ البطولي هو الأولَ وليس هو الأخيرَ بل إنــه واحد من كثير من المشاهد الرائعة التي يزخر بها تاريخُنا الإســلامي العــريق، ونفخــر بهــا ونرفع رؤوسَنا عزةً وإباء وشموخاً ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين.

و إلى اللقاء مع مشاهدَ بطولية أخرى من غزوة أحد.

تمت بعون الله

الفهرس





معارك عربية إسلامية خالدة

للصغار واليافعين

لم تكن الحربُ لدى العرب المسلمين غايةً لذاتها ، وإنما كانت لردّ العدوان ، ولدرءِ الأخطار ، ولإزاحة أولئك الذين يقفون في وجه الدعوة ويحولون دون إنتشارها. وهي معارك تشمل على بطولات وتضحيات وجود بالنفس (والجودُ بالن[illegible] غاية الجود).

ودار القلم العربي للأطفال بحلب - إذ تنشر هذه الكتب - إنما تسعى إلى [illegible] نفوس الأبناءحبَّ التضحيةِ والفداءِ ، وحبَّ ابائهم الذين بذلوا دماءَهم [illegible] شامخةً لايدّنسها مستعمرٌ غاشم.

والله من وراء القصد
الناشر

I.S.B.N: 1 - 5050 - 3

